للحُــزنِ ممّشــى

قصص قصيرة جداً

تأليف :

منيب مختار إسحق

دار المنى للطباعة و النشر و التوزيع

حقوق الطباعة و النشر و التوزيع	دار المنى للطباعة و النشر و التوزيع
العنوان	المنصورة – كلية الدراسات الإسلامية القاهرة – حلمية الزيتون Dar.elmona@gmail.com 00201006101006 – 00201155956285 – 00201142129140
رئيس مجلس الادارة مدير الدار	منى عبد اللطيف أحمد مصطفى
تصميم الغلاف	أحمد حسن
اسم الكتاب	للحزن ممشى
اسم المؤلف	منيب مختار اسحق
نوع الكتاب	مجموعة قصصية
الملكية الفكرية محفوظة للمؤلف	منيب مختار اسحق
رقم الإيداع المحلي	/2020
الترقيم الدولى	978-977-6853-

إهـــــــــــــــداء

إهداء أول :

إلى روح الفنان الرائع , شول منوت

إهداء ثاني :

إلـى شـيطان الإنـس, عـدو البشـرية الأزلـي الـذي أنضـج فكـرة صـنع البندقية في مخيلته

وإلى صديقي الرائع سليمان صالح, طبعاً

منيب مختار

1

للحزن ممشى

كمن يسابق الرياح العاتية الهاربة من أقاصي الكوكب حيث تبدأ الأرض دورانها من هناك, سحابات متكتلة تطاردها محافظة على تلك المسافة التي تخيفها دائما, تأتي لتحتمي بفارسها الهلامي العبثي والوهمي أكثر, تأتي وفي خلجاتها أصناف الأماني اليافعة التي تعتبرها كطوق نجاة من المجهول .

ساعة يد تخص شخصاً ما يجلس عن قرب على مقعد خشبي محاذياً للرصيف تشير إلى الثامنة صباحاً, بعد لمحة خاطفة للطريق الطويل الذي لا يلفظ سوى السيارات الخاصة (الملاكي), أعود ببصري نحو جريدة بائتة أنظر إليها غير مبالياً بمحتواها ولا حتى بمن تلمع صورهم من صفحاتها المتعددة, الرصيف الممتد مكتظ بالمنتظرين والمتذمرين مكتظ بالموظفين الحديثين الذين لم يفلحوا بعد على إقتناء سيارات من فائض الإيصالات المالية والطلاب والعمال البسطاء وأصحاب المهن الحرفية وهناك في جزء قصي يجلس المتسولين أيضاً ليصطادوا الأخيار من بين الوفود , جميعهم في دوامة إنتظار مفتعلة يوبخهم أرباب أعمالهم فيما بعد جراء تأخيرهم الغير مجدي حسب منطق السلطويين الذين لا يعرفون الطوابير . وطن بالكامل, بسكانه ومبانيه وغاباته يقيم انتظار باهت على الأرصفة المبتلة بدموع وعرق وأرق الليالي الفاجرة المنبوذة, ليس هناك مهرب من مصائر الأشياء في مدينه الرب, مع ما تبقى من روح نحرك السواكن التي طال ثباتها الأليم كمن راهن على رأس الأرض بآخر فرصة نجاة غير مؤكدة, كمن يرى بعمق نهايات الأشياء المغايرة للعقلانية بعين المنطق, عيسى ييّ يقصد قريته النائية جداً عن تلك المدن المزدحمة, الخالية تماماً من صف الانتظار الطويل, سحر عجيب يدركنا في لحظة

صمت مدوي ليُعيرنا بيت القصيد المعكوس ويسافر بنا إلى عوالم أدنى ما يقال عنها مزاجية, وما أخبث من أن تنجب حبيبتي بالمعني الشرقي للحب طفلاً جميلاً غير محظوظ في توقيت سيء للغاية, أن تضع بين كفيّ شخصاً كاملاً شاركت بقوة في وصوله إلى هنا, جعلتني أسترسل مخيلتي مضيفاً مصير آخر إضافة إلى مصيري المجهول, قالت بعد أن رمقتني بحب وكره في ذات الوقت:

كتلة الحزن هذه تخصك

أصبح الصبح, وديك بالجوار بدأ بالغناء حسب رأيّ والأذان وفق رأي شيخ النور حمد_ السماء تُعبر عن سعادتها بطريقتها والأرض أيضاً تفتعل اتزان جديد, تتململ وتعيد عكازها الطبيعي واقفاً بصلابة لتفلح في تحمل أثقال مجهولة تختمر في السطح, لم تمهلنا الظروف لنستيقظ على الأقل, حيوان مفترس أخذ يبتلعنا من السماء أخذ يشرب من دمائنا اللزجة ذات المرارات المتعددة_ طائر ما أطلقنا عليه في بادئ الأمر شيطان وفيما بعد أيقن الجميع بأن الحيوان السماوي مخلوق يُدعى أبابيل, تُرى من أيقظ هذه الأشباح النائمة وسلطها علينا يا دينق فـ ليخبرني أحدكم ماذا فعلنا يا شيخ يُور, هل قررت الآلهة أمراً ما ؟

وقف عيسى ييّ وأخذ يصرخ_ لماذا يا إلهي فأنا مسيحي ملتزم وبيننا مسلمين ملتزمون أيضاً, قل لي ما ذنب طفلي الرضيع ماذا اقترفنا ؟

هبط المساء المعتق بصُنان الدم, النسور تحلق عن قرب تستأذن أقرباء الموتى لتحفل بعشاء فخم أعده شخوص خلف المرآة, أنصاف جثث تتأوه على أحضان ذويهم _ عبرات مخنوقة تصدر أصوات متقطعة هنا وهناك والنسوة في أقبح صورهن ينتحبن ويصرخن, دموع منهمرة على تجاعيد كبار السن والشباب المقهورين, سولو الصغير طارد الطائر الشرير بعد أن شاهد سقوط والدته عملية مطاردة ليست متكافئة تماماً , ربما الصدمة وعمره الصغير كانا كفيلين لخوض مغامرة ذات نتيجة فاشلة منذ البداية _

ليس هناك من يخبره بأن الأمر يحتاج إلى جناحان وروح قذرة مستذئبة , يحتاجان إلى إمكانيات شبه مستحيلة يا صغيري مأساة تفوق قدرة الإنسان العادي على الأرجح ، دينق ممسكاً بغيلون ورثه من أسلافه الأولين متفحصاً علبة الحشيش المركونة في أقصى سرواله الكبير, تمخض بعنف قبل أن يسرق الدخان لرئتيه البائستين, ملتفتاً لعيسى يّي المسكون بجن الأقباط كما هو شائع عند قبيلته, جن لُقب بالوطواط, مشق السياط الذي يُزين جسده يطفو على شكله الهلامي الجميل وهو مشغول باستئصال شوك الكِتر والأم لسيك من على ظهر نعجتيه الصغيرتين تمهيداً للحظة تأمل كما قال لاحقاً, أو ربما مرتبط فعلياً بطقوس جنية كما يزعم البعض, سأله دينق بكلمات خرجت ضخمه جراء الدخان الذي لازم الأحرف الهاربة نحو الفراغ :

- ماذا بك ؟ هل جننت ؟

افتعل نصف استدارة مع نصف ابتسامة ثم أردف:

- ما الذي يبعثني إلى الجنون يا رفيق, فقط ثمة أمر ما بدأ شائكاً للغاية, سألت نفسي وأنا عائد إلى هنا عن ماهية الفوارق والمقاربات التي تتجلى في عالمنا, هل نحن فعلاً عبثيين حد التأقلم مع ترهاتنا المُستهلكة, هل هي لعنة مألوفة لدينا ؟

أخذ دينق يسبح في أغوار خطاياه عسى أن يعي ما أدلفه عيسى لتوه, لكن الأمر صعب للغاية بالنسبة لقروي لا تستدعي الأشياء من حوله العقلانية المحضة, حيث أنه لا يفكر كثيراً أو ربما لا يفكر البتة لطبيعة حياته العرضية في كل صورها, في الصباح الاعتيادي يتجه شيخ يُور نحو الغابات المتراصة المتقطعة ليحظي بغزال تائه أو دجاج الغاب (جداد خلا) يبحث عن فريسته التي خبأتها له الآلهة في مكان ما خلف شجرة سدر أو أشجار مشابهة, ممسكاً بحربته المزينة بجلد النمر من المنتصف وسلاح بلدي آخر

أشبه بالكلاشنكوف من حيث الرعب رغم بدائيته, هو صورة مصغرة للذين يطاردون الأشياء المتحركة أيّ كان نوعها حتى ظلالهم السوداء الداكنة, نادراً ما يعودون خالي الوفاض, ونادراً ما تصل عائدات القنيص إلى أسرهم, حيث بيوت الخندريس تقفز لأذهانهم مع كل لعبة مطاردة, ربما هي من أقوى الدوافع ليبذل يُور الملتزم جهد مضاعف ليلحق بأرنب بري وعلى الأرجح يملك تعريف آخر للالتزام يخصه وحده, في الوقت ذاته تعلو أصوات الأطفال, صياحهم, أغانيهم, تخاريفهم الطفولية الجميلة ومزاحهم الحاد الهمجي الذي يصل حد الأذى أحياناً, يتفاخرون فيما بعد بضخامة أشيائهم وطول قاماتهم حيث أن مقاييس الرجولة العادية تتقلص عندهم إلى الطول والعضلات البارزة ونسبة خوض النسوة في الحديث عن شخص ما وإطلاق الشائعات وتداولها, حيث أن معظم الحياة هنا مبنية على القصص والأساطير والأكاذيب الحقيقية نوعاً ما فالحقيقية المحضة هنا الموت الحكومي فقط, سولو الصغير الذي يحلم بأن يرتدي الملابس العسكرية ليقتل ذاك الشبح السماوي الذي يطل عليهم من حين إلى آخر لينسف ويُغيب ويقتل, وما زال سولو يقتل كل الأشياء التي تستطيع التحليق في السماء حتى العصافير والفراشات, كان يحب الرسم على الورق فتأتي الرياح العاتية وتأخذ أوراقه إلى الفضاء لتحلق بعيداً وفق قوة وطريق الرياح وما أن تهبط يمزقها ويدفن بقاياها كي لا تصير شبحاً آخر, سولو يقتل كل فرصة لأشباح أخرى قد ينجبها الوقت يخاف من أن يترك صدفة تنسفه فيما بعد, فضل الرسم على الحائط الذي لا يطير ولا يحاول ذلك أيضاً, راودته وساوس عديدة منها أن الجن القبطي الذي تلبس عيسى هو من أحضر الشبح السماوي, الوطواط طائر كذلك يا إلهي طائر خرافي يحبذ التحليق ليلاً, عشاق الليل خونة بلا شك حسب تعبيره, الظلام عدو الإنسان المسالم, عدو النساء الحوامل والأطفال المرضى والمسنين والمتسولين, الليل صديق العاهرات والداعرين واللصوص, صديق تجار الأضواء الصناعية والمتسللين والقتلة .

شيخ يُور العائد من رحلة صيد عبقة, حاملاً على كتفه قط بري ضخم, يتحتم على اصطياده خمس شبان من سكان العاصمة كما يعتقد, خمس رجال قد يزِنون شيخ يُور, صرخ بصوت غليظ منادياً زوجته ماورا البدينة, ملامح الزهو تعلو تجاعيده الكثيفة, تصفق زوجته بانتصار, أخرج من مخلاته دجاجة كنو دجاجة برجل مكسور, يمنع على السكان أكلها أو اصطيادها لأنها تصيب آكلها بالبرص هي لعنة مساقة منذ الأزل, لعنة الأجداد القدامى الرحماء والشيوخ, جميعهم يهابون ذاك النوع الملعون من الدجاج, هربت زوجته نحو الشارع فور رؤية الدجاجة وأخذت تتلصص بوجهها المكفهر تترقب ما يفعله يُور وهي ترتل بعض التعويذات, بدأ بتضميد الجرح بقطعة قماش اقتسمه من ثوبها الطريح, في الوقت الذي يشخر شيء ما في السماء, إنه الطائر الشبح مرة أخرى, اللعنة التي جاءت مع شيخ يُور على هيئة دجاج بري, ماورا أخذت تصرخ والقرية انقلبت رأساً على عقب, الكل يُعبر عن خوفه بطريقته يعبر عن سخطه وسوء حظه, السماء تمطر براميل صغيرة هذا ما وصفه سولو فيما بعد, ربما هو فقط من تجرأ على النظر في الأفق البعيد هو فقط من كان يملك رغبة وجنون كافيان لرمق عزرائيل رسول القصور الذهبية, طائرة جزئها الأمامي أقرب إلى رأس السهم أما مؤخرتها أشبه بسمكة قرش عملاقة ربما خاصية الالتهام والافتراس قاسم مشترك بينهما, هذا ما وصفه سولو للهاربين الذين لا يعرفون حقيقة الشيطان السماوي, اللعنة الأبدية, الطائر الشبح المسلط من آلهة الشر .

دينق يرتعش, يرتعد, يدعو ويبتهل برب لم يتعرف عليه سوى الآن, لا يدري من أين له بهذا الإيمان المفاجئ واليقين الجازم بأن دعوته ستُقبل, لا يدري لكن لا مناص, كل ما يدركه هو الاستنجاد بقوه أكبر من قوة البشر, يداه ترتجفان, غيلونه يسقط وبقايا دخان متحجر يخرج من كل نوافذ جسده, من فمه وأذناه وربما إسته, ماورا متشبثة بشجرة تبلدي كبيرة, شجرة تعود لما قبل الميلاد وفق معلوماتها عسى أن تفلح في الاختباء من

ذاك المخلوق الذي فوق الجميع, تتمتم بكلمات مبهمة أو ربما تعويذات, تلعن بين كل آيتين زوجها شيخ يُور, هو من جلب دجاج الغاب إلى القرية هو من يجب أن يُعاقب, الطائر الشبح لعنة دجاج الكنو, أخشى أن يصاب الجميع بالبرص لو تمكنوا من النجاة, إما الموت أو البرص, خياران أحلاهما مر, لمحت سولو فقط يطارد الطائر متجهاً ببصره إلى أعلى, سولو الصغير يرشق الأفق بالحجارة وفي مخيلته الصبية نسج لها سقوط مدوي, نسج مصيدة محكمة كتلك التي يستخدمها مع العصافير ،

ماورا تصرخ :

- يا ولد أرجع يا ود الحرام بقتلوك

صرخات مصحوبة ببكاء ونواح, دموع خفيفة تداعب خدودها الشاحبة, سولو يطارد الطائر يبذل جهداً مضاعف, يدنو ليلتقط المزيد من الحجارة, ماورا في محاولة بائسة للجري خلفه, تحاول ولكنها تكتشف بأنها لم تتقدم خطوة إلى الأمام, تجري في مكانها فقط, صوتها فقط من يجري خلف سولو حتى صوتها المبحوح بدأ يتلاشى, هي فقط من تسمعه الآن, رصاص مبعثر نزل على الأرض رصاص من السماء يهطل نحو الصغير, لأول مرة تتجرأ ماورا على النظر للطائر الشبح, تنظر ولا ترى سوى الضباب ورائحة البارود المقزز, شبح الطائر فقط ما تراه, اتجهت ببصرها نحو الأرض لتجد سولو ممدداً, تحول جسده إلى بقعه حمراء, حاولت مراراً أن تصرخ لكن عبثاً كانت تحاول, عبثاً تدخل أصابعها في حنجرتها لتعيد صوتها, مات سولو بل قُتل, غادر الشبح بعد أن تأكد من موت الجميع, بعد عملية تكرار رمى الرصاص على الجثث والقنابل على المنازل,عيسى يسيّ هرول نحو جثة سولو الصغير أخذه بين أحضانه كقطعة لحم لزجة, مات وفي داخله امة بأسرها تبحث عن قيامتها, مات دون أن يعلم من هم القتلة دون أن يعي لماذا ؟, رحل كخطيئة هاربة من قلب نبي لم يُنصبه الله قط, رحل كرجل

سكن جسد طفل, ماورا تنوح وتسكب التراب على رأسها وتضيف بين كل ذلك:

- أولاد الحرام كتلو, كتلو, كتلو ....

دينق من زاوية مشاهدة باهتة ينظر إلى الجميع, ينظر إلى قطعة اللحم الصغيرة التي يحتضنها عيسى ييّ, فقط ينظر ولا يُصدق هل حقاً قُتل ؟ هل حقاً خسر صراعه مع الطائر الشبح, هو فقط من كان يرجح كفة انتصار سولو كان يؤمن بفكرته يؤمن بقدراته كطفل مختلف واستثنائي, في الوقت نفسه تمنى لو أن السماء أخذته بدلاً عنه لو أنه وهب ما تبقى من عمره ليحيا الصغير, جلس على ركبتيه, قاسمهما ذاك العناق الحزين, عناق الفقد, صمت مؤلم عم المكان ليس سوى طقطقة القصب الذي يحترق وعواء الكلاب الخائفة ليس سوى أنفاسهم المتقطعة وعبراتهم المخنوقة, شيخ يُور لعن كل شيء حتى رحلة الصيد البائسة تلك, حتى دجاج الكنو الجريح أضحت الحياة مجرة أكذوبة حذقه أو ثعبان ضخم لم تستطيع عصى موسى ابتلاعه هو هكذا يكره تلك الفرص التي تسنح للآخرين قتل الآخرين, يكره الفرص الغير متساوية يكره ما يتنافى مع إعتداله الديني, أخذ يمشق الأرض بحربة الصيد المسمومة ناسجاً في مخيلته حرباً بدأه سولو حرب خسر فيها الذي كان على الآلهة أن تبارك انتصاره حسب تعبيره, ثمة خطوات ثقيلة تأتي من خلفه, وقع متذبذب يتقدم نحوه, خبأ دموعه بسرعة فائقة خلف وقارة مصطنعاً ابتسامة صفراء في وجه دينق, أخذ دينق القادم لتوه ينظر لشيخ يُور تارة وتارة نحو الفراغ والرماد والجثث المنتفخة وهو يحشر كومة حشيش كبيرة في غيلونه الأثري, يحشره بقوة كما لو أنه يفعل ذلك حقاً في فم قائد الطائرة,كمن مُنح دقيقتان فقط قبل إعدامه ليحظى بلحظة نشوة غير مكتملة, قال بعد أن سحب نفساً طويلاً من الألم:

- ماذا بعد يا شيخ ؟

هل نحن الضحايا القادمين في مسلسل الموت, هل حقاً سنكون مقطع مأساوي في الحلقة الأخيرة ؟

يُور بنبرة حادة :

- سيموت البطل هذه المرة

ثم غادر موغلاً في الغابة, تاركاً صديقه المذهول, هو فقط قال لكن كيف لا أدري, هو أيضاً لا يدري, أخذ يصارح نفسه _ نحن لا نستطيع محاربة الأشباح لا نستطيع الطيران مثلها, كان على أحدهم أن يُخبر سولو بذلك ،

خيم الليل, اعتلى القمر برزخ الأفق, بدأ شاحباً هذه المرة أو ربما شائخاً, تبدو عليه خطوط حمراء متعرجة تشبه لون الدم المختر, ماورا جالسة تحت شجرة مانجو عاقرة, تحاول أن تصنع عشاء أسفل فضاء العزاء تحاول أن تتذوق طعامها المخلوط مع روائح الموت, ملاح قرع يتأبط مقودها الطيني يكابد لهيب الحطب الذي يُصر على النضوج المفرط أو ربما هي من تُصر, تلاطف عيسى ييّ بين الفنية والأخرى ممازحة :

- رأيك شنو في حلة القرع يا مسكون ؟

عيسى بتهكم وكأنها أيقظت الجن القبطي المزعوم بداخله:

- قرع شنو وبطيخ شنو ياخ, الناس في شنو و(,,,) في شنو

ضربت مقدمة مفراكتها على كفها الأيسر الذي قصد مباشره لسانها المتدلي هزت المقود ببراعة منقطعة, صرخت دم دم دم , اندلق القدر ليملأ المكان سيلاً من الدماء, فزع موسى لفظ غيلونه الوراثي من فمه, رفع رجلاه المتدليتان من على الأرض التوى على نفسه وعلى ماورا, تعانقا بل كادا أن يدخلان في بعضهما, امتزج عرقهما, التصقا أكثر كلاً يتنفس في صدر الآخر

ربما احدهم يقوم بعملية الشهيق والآخر يتكفل بالزفير, صرخا معاً, هرول دينق مشمراً حرابه قلبه ينبض بشدة لم يجد ما يبتلعه في حلقه, وجدهما هكذا ملتصقان مرتعدان, كتلة من الرعب تتملك أطرافه, استجمع قواه, سألهما ما الخطب ؟

كلاهما بصوت واحد متقطع :

- دم دم دم

نظر دينق إلى الأرض, اقترب أكثر, استنشق الأمر, هدأ قليلا وبدأ يضحك بهستيريا مفرطة مضيفاً:

- قرع ,ملاح قرع

ثمة من يضحك بالخارج, يقهقه عالياً,إنه شيخ يُور الذي أخذ موقعه بالقرب من المكان حاملاً قوسه, قفز شبح سولو من مكان ما في الغابة, أوغل داخلها بعد أن رمقه الجميع, ماورا أخذت تصرخ:

بكتلوك أولاد الحرام بكتلوك أرجع

2

مـــــا يحدث في الزقـــــاق

عنـدما كانـت تـأتي إلـيّ فـي منامـاتي السـابقة وصـحوي المبتـذل بفسـتانها المخملـي وضـحكتها الرجوليـة الأنيقـة وغنجهـا الأنثـوي المفـرط, لـم أكـن أعلـم حينهـا هـل هـي حقـاً مـن تـأتي أم أنـا الـذي كنـت اذهـب حـاملاً كـل استفاقاتي, قصـائدي, اوراقـي الصـفراء, حـذاء الشـتاء العنكبـوتي المميـز وسـجارة تتوسـط فـراغ علبـة البرنجـي العتيقـة, اجمعهـا وانتظـر لتـأتي أو لأذهـب محمـلاً بكـل اسـباب الجنـون وإنفـلات المخيلـة إضـافة إلـى ذاك الزقـاق الضـاج بـأكثر مـن أنـين ومكـتظ بـارواح متكـورة علهـا تجـد خلاصـها الأبـدي, هنـاك مـن يسـتمر فـي لطـم الجـدار بكفيـه اللئيمتـين ثـم ينـزوي حيـث يـراه الجميـع لأن الجميـع فـي الزقـاق وآخـر يلفـظ نفسـه داخـل آلام الجميـع ثـم يخـرج نظيفـاً لامعـاً كنصـل ملكـي وكأنـه قسـم خطايـاه ولعناتـه علـى اجسـاد غيـره المشـغولين بالبكـاء واللطـم ، وأمـي تظـن بـأن الزقـاق الطويـل الملتـوي لـيس سـوى صـراط متشـعب يعبـره سـكان المسـتنقعات الرديئـة, أتـذكر جيـداً مـا قالتـه أمـي قبـل أن ترحـل نحـو أكثـر مـن طريـق أتخيـل شـكل جلسـتها الأخيـرة وتجاعيـد وجههـا المسـائي الجميـل, والآن لا أطلـب منهـا العـودة مـن داخـل تلـك الرصاصـة البوليسـية اللعينـة, لا أطلـب منهـا أن لا تُخبـر والـدي عـن السـجائر وجرعـات المخـدر والتسـكع فـي الزقـاق عـن التحملـق فـي السـماء وعبـر نافـذة الجيـران الصـغيرة, عـن جنـوني وانتظـار الطالبـات علـى الطريـق وعـن كـل شـيء فقـط أود اخبارهـا بـأن والـدي عـرف كـل شـيء لكنـه يعلـم ايضـاً بـأن العقـاب دون حضـورك البهـي المنحـاز لـي لا يُجـدي أو ربمـا لـذة العقـاب تكمـن فـي الإختبـاء خلـف ثوبـك الـمخملي ومعاناتـه ليخطـف مشـقة تجعلنـي ألتصـق أكثـر داخلـك, هـو يُريـدني أن أتحسـس وجـودك, كـان دائمـاً يـتقمص دور الجـلاد الـرحيم ليعمـق إيمـاني العميـق منـذ الأزل بشخصـك الطفـولى الـذي يـدافع دائمـاً, هـا أنـا مجـرة جسـد مـن بـين آلاف الأجسـاد التـي تلتحـف ذاك الزقـاق العـابر أو الصـراط المتشـعب كمـا يحلـو لـك, وقطـط اللحـوم السـوداء

تتلوى علينا لتسرق ما تبقي من طفولة, كنت احاول أن اصرخ (القط,القط يا أمي) ولكن حتى صوتي خذلني وتواطأ مع الزقاق أو ربما مع القطط, حتى صداه تآكل في الفراغ القصير بين تعرجات الجدار الطويل ومداه المنقرض ، هي نطفة الشك الأخيرة في رحم العقل التائه كعادته السيئة, حينما بدأ الجميع بتزيين الجدار الأملس بنقوشهم المسممة وإفرازات مخيلاتهم المنبوذة, ليحتفلوا بذاك الضياع وتلك الدوامة الجنائزية, هو صراع يحتاج لشارع شاب يخلف هذا الزقاق العجوز المصاب بالدرن والحمى, حتى أبي بات يسكن سجادته البيضاء, بات يترقب ذلك الثقب الذي على السقف مملوءً بفكرة أنك ستعودين من خلاله, بات يلعن عقب كل صلاة تلك الرصاصة البوليسية الطائشة التي إخترقتنا جميعاً وقتلتك وحدكِ, كان من الأفضل أن تستقر في حلقي ربما سيكون الوضع أقل سوء بالنسبة لشقيقتي الصغيرة وكلبك العجوز وجارتنا الثرثارة زليخة, هي الآن امرأة فاضلة لم تجد من يسمعها بعدك, لم تتجرأ أن تنقل احداثها الخيالية لأحد أو أنها تختزن ثرثرتها إيماناً منها بأنكِ في مكان ما تنتظرينها لتتقبلي جنونها وهذيانها الممتد, تماماً كما يفعل أبي, هي فقط من تأتي إلى الزقاق وبصورة ما تقول لي:

- هل عادت والدتك ؟

وقبل أن اتخلص من شكلى الحزين لأواسيها تقاطعني مُضيفة,
.لا بأس ستأتي لا محالة

الكل يُصدق بأن ثمة خلل جلي ولج عقلها الذي لا يزال يوحي لها بأحداث يجب أن تقصها عليكِ لتصدقينها كعادتك, ها هي الآن تقفز نحو الزقاق بين الحين والآخر لتسألني وتُجيب ايضاً و لتؤكد جنونها اللذيذ القبيح , لتؤكد تقديسها لعلاقتكما العابرة السابعة والنصف صباحاً لا أدري هل هذا بتوقيت الأرض أم بتوقيت الزقاق البعيد جداً عن الدوران الحقيقي, هو توقيت مزاجي أكثر من انتماءه لعجلة الزمن الهاربة بسرعة فائقة, أمطار

غزيـرة تتسـاقط بـنهم وعنـف, الكـل يهـرب حيـث يتوقـع أن يـأوي ذاتـه التـي تخشـى الزكـام, حتـى سـكان الزقـاق المتعـرج هربـوا بشـراهة نحـو زوايـاهم المحجـوزة قبـل أن تنجـبهم الأرض وتلفظهـم إلـى هنـاك, دائمـاً مـا أصـل أولاً لأسـباب لا علاقـة لهـا بـالقوة والبنيـة الجسـمانية ربمـا لأنـي أخشـى المطـر أكثـر منهم, أمـي ايضـاً كانـت تقـول لـي بـأن المطـر يجلـب الفـال السـيء, زليخـة تلـوح بيمناهـا مـن بـين الجميـع لتسـألني مـرة أخـرى هـل عـادت والـدتي وتُجيـب كالعـادة ثـم تختفـي وتتلاشـى الباعـة الصـغار يحشـرون بضـائعهم فـي جيـوبهم الكبيـرة المُعـدة مسـبقاً لظـروف مشـابهة ويهرولـون, عزيـزة شـانكي بائغـة الخُمـرة فقـط مـن تقـف عنـد الرصـيف وتسـتقبل وابـل المطـر, تُمـرر انامِلهـا علـى شـعرها المبتـل وتغمـض عيناهـا لتـوحي بتلـذذ عميـق وحـدها مـن بـين الجميـع تحتفـل مـع المطـر, ربمـا هـي طقـوس تخـص تسـويق الخُمـرة فقـط أو كمـا يقـول الـبعض بأنهـا مصـابة بجنـي مـزارع يجلـب لهـا الـرزق أو أنهـا تسـتمتع بطريقتهـا كمـا خيـل لعقلـي الصـغير, الكـل حـراً فيمـا يقـول حـراً فـي طريقـة تفكيـره والمـدى الـذي يسـتغرقة ليسـتنبط الصـواب الـذي يتوافـق مـع مقاسـات تخصـه ولا تخـص قطعـاً شخصـاً سـواه, علـى كـل سـكان البسـيطة أن يقـرروا فـي وقـت مـا أن يخرجـوا مـن الأزقـة المتشـعبة أو أن يموتـوا, أن يموتـوا جـزء تلـو جـزء مفصـل تلـو مفصـل إلـى حـين التلاشـي, ليكونـوا أشـباحاً خالـدة وأرواحـاً تتصـيد الأحيـاء . قلبـي الصـغير خـرج مـن قفصـه مطـارداً إبنـة شـانكي, إنتـزع نفسـه بقـوة متمـرداً يبتغـي أن يسـكن جسـدها المبتـل أو حتـى أحـد قِنـان (الخُمـرة) الخاصـة القابعـة خلـف حمالـة صـدرها الرماديـة الحمـراء أكثـر, طاردتـهُ مـرات عـدة وهـو يتسـلل ظلمـة الزقـاق عبـر الأجسـاد المتنـاثرة لكـن دائمـاً مـا يُفلـت متخطيـاً تلـك العتمـة التـي أجهـل كيفيـة التحـرر منهـا, حينهـا علمـت بـذاءة أن تطـارد قلبـاً رفضـك, رفـض التكـور ومنطـق الأزقـة الملعونـة, ذاكرتـي ايضـاً باتـت لا تحـتفظ بالأشـياء المؤقتـة, الأصـدقاء المـزيفين والفتيـات المراهقـات المسـتذئبات, روابـط الشـباب التـي تمتـاز بلصوصـيتها الدائمـة والأنديـة الرياضـية المكتظـة بمروجـي النمـائم وقطـاع الطـرق واحيانـاً القتلـة المـأجورين

وحتى سراق الأحذية البلاستيكية, جميعهم بصورة أو بأخرى يقطنون الزقاق النتن بكامل عنجهيتهم وزهوهم المزيف, وقلبي ما زال يخدعني ما زال يعبث مع معشوقته تحت المطر الذي حذرتني منه أمي, هو أيضاً يشمله ذلك التحذير الصارم, زليخة مرة إخرى تحشر رأسها الفضولي في الزقاق لتسألني عن عودة أمي ولا تنتظر الرد لا تنتظر جواباً أو ربما تحتفظ بشيء من الصراخ لتوبخ أمي عند لقائهما المحتمل كما بدا لي, وفي طريقها كانت تتمتم:

- أين أنت ؟ لتنقذي طفلك من هذا الزقاق البائس أو لتنقذيني من تلك الحكايات التي تملأني الأن, ثم تطمئن نفسها مضيفة, ستأتي لا محالة ، أجمع ما تبقي منيّ متخطياً كل شيء إلا الزقاق الذي يطوي نفسه ليلحق بخطواتي التائهة, أحزم أمتعتي في حقيبتك الجلدية الصفراء تاركاً خلفي ذلك القلب الشقي ربما يملك متسع لحزن جديد يضع فيه خيبة زحفه خلف أنثى المطر, الشوارع تختبأ عند رؤيتي, تخاف عدوى الفقد ولعنة الإكتراث, الأطفال يرشقونني بالحجارة وبقايا الطوب الأحمر يمشقون ظهري بسياط الكبريت اللئيمة, على الأرجح هم من صنعوا كرههم بايديهم كرهوا سكان الزقاق المتعفن, كان من الافضل أن يعاقبوا الرياح التي تتكفل بترويج الروائح ونشرها في الفراغ, الفرق الوحيد بيننا أنهم عانقوا أمهاتهم هذا الصباح, لانهن يسكُن معهم ولأنكِ تسكنين داخلي و داخل تلك الرصاصة, هي قلادتي الآن وتميمتي السحرية لأنكِ تسكنين هناك بل أكثر من أُم يسكُنْ في أماكن مماثلة, لا أنفك عن التفكير في إمكانية التحول المؤلم لشكل وجودها الآن حيث لا أستطيع لمسها أو الإنفراد بعناقها السحري البسيط, كان من المتوقع أن يدفعني هذا الفقد المهول نحو الزقاق ، طيفها يتربص بالمقاعد وتخوم ذاكرتي القصية وهي تختزل حضورها الليلي في وضع النهار,تسرق صوري المخبأة وتستدين من " الدولاب " رائحة الملابس ثم تقف على

شـــرفتي مرتديـــة ثـــوب الحـــداد, كيـــف لـــي أن " أدس " طفـــولتي فـــي حضـورها وأُعيـد ترتيـب أحلامـي الصـبية, كيـف لـي أن اخـوض حروبـي القديمـة حـين تنتهـي رغبـة الطبيعـة وتجعلهـا تبكـي, مـا أبشـعها حـين تبكـي لتجعلنـي اصـدق طيفهـا وأعـود مـن بدايـة الطريـق علـى هيئـة نطفـة تـدور فـي الفـراغ المتنـاهي, كيـف لـي أن أترقـب العقـارب داخـل سـاعتي البلاسـتيكية الصـغيرة لتقفـز منهـا أو لتأخـذ منـديلي الممـدود منـذ مـدة, منديلي المحشو في سترة أبي قبل ميلادي وربما قبل ميلاده لا يهم

3

ذاكرة الشتاء

ها هي الشمس تُزيح ستائر غرفتها , تفتح جفنها المغمض فيستحي الليل , وأمي ما زالت تحاول أن تُحيك لي معطفاً من سراويلي القديمة وبقايا عباءاتها التي مزقتها الأرصفة والأمكنة, جدي جالس علي نصف كرسي صارخاً كالعادة في وجه أخي الصغيرالذي تأخر في ملء إبريق الوضوء , هو هكذا يصلي دائماً صلاة يسميها الشكر , هو هكذا لا يملك الوقت سوى للتهجد والورع ، وضجيج الحي الذي يرتقي شيئاً فشيء إلى الصراخ , صراخ الأمهات , الآباء , الأطفال والمواشي , صوت عرفة وهي تستمتع بتوبيخ زوجها العاطل عن العمل , يؤذيها تمدده على فراش إشترته من سوق المُطلقات أو (الدلالة) بكسر الدال .وكالعادة يرد زوجها آدم ببرود قائلاً :

- لا تثرثري كثيراً وإلا سأحضر حواء أخرى

يفتخر آدم بفحولته ورجولته , آدم صورة مصغرة لكل من في الحي , لكل الفوضويين , لكل المستسلمين لمشيئة القدر , للذين طرحتهم قطارات الرحيل وعجلة الزمن, الصباح في هذا الحي غير مُرحب به وكأنه الطفل الغير شرعي للظلام , وكأنه يوم جديد ممتد لا يحمل جديداً , الشباب يقصدون الأسواق والأطفال إلى الخلاوي والمدارس التي لا تختلف كثيراً عنها .الكهول إلى مجلس الشيوخ أو بالأدق ظل الأشجار المتناثرة هنا وهناك تاركين ورائهم نسوة الحي في أبهى صورهم وفي أسمى نرجسيتهم المزيفة وزينتهم المفتعلة , المرغمة , المجبرة ، قسمتهم الظروف فيما بعد إلى عاهرات وصانعات خمر , إلى ارامل وثكالى ومعطوبين ومنكوبين , يصارعون الحياة تطرحهم أرضاً ويهُبون مرة أخرى حيث اللا خيار سوى المقاومة والحرب , الحرب التي وضعتهم في هذة المساحة الضيقة جداً , بيت يلقح بيت , سرير يلقح سرير واوكسجين تتسارع الأنفاس لإلتقاطه , أحلام ضاعت في زخم الأولوية والتفاضل , آه

أتـذكر مقولـة الشـيخ إسـحق عنـد خروجـه مـن السـجن بـل لـم تفـارق خـاطري لحظـة واحـدة , كـان يقـول حتـي السـجن شـهياً أكثـر مـن هـذا الحـي أوسـع وأجمـل , كُنـا نقهقـه فـلا تمـلأ صـدى قهقهاتنـا فضـاء السـجن .إنـه صـدى ألـم طويـل , صـدى شـهيق وشـهيد , صـدى زفيـر ونفيـر, صـدى حـرب لـم تنتهـي , كُنـا نعـانق قضـايانا وسـياط السـجان بفـرح ولكـن مـا يؤسـفني أن المـوت يخـاف المسـاجين يخـاف قلوبـاً مليئـة بـالحق , يخشـي أن يأخـذنا إلـى السـماء , أو ربمـا يستحي لا أعلم يا اصدقائي

الخامسة مساء

النسـوة يجهـزن خمـراً فرغـوا مـن تقطيـره لـيلاً , الجـزارين غيـر الشـرعين يـذبحون المواشـي كيـري , البغايـا , تجـار القنـب الهنـدي , الصـغار يلعبـون كـي يتناسـوا وجـع الصـباح وصـخب النهـار وكـل شـيء , المـوظفين أصـحاب الياقـات البيضـاء , السـوداء , الحمـراء , أسـاتذة المـدارس والطـلاب , أصـحاب المتـاجر والبـائعين المتجـولين , الشـيوخ الـدجالين , أصـحاب اللحـى الكاذبـة ودواويـن الضـرائب , جمـيعهم يحتسـون الخمـر والعرقـي جمـيعهم يمارسـون الرذائـل , جمـيعهم يـأكلون اللحـوم , القاتـل والضـحية يتكـآن علـى جـدار النسـيان عسـى أن يهربوا من ذاكرة الحرب والخراب .يتركون عقولهم أسفل مؤخراتهم

ضراط النشوة يعبق المكان

ضحكات السكارى كالموسيقي الركيكة دون ضابط إيقاع

العسـكر أيضـاً يـأتون فـي شـكل كتائـب حـاملين علـى أكتـافهم البنـادق وفـي جيـوبهم مرتبـاتهم التـي لا تصـل بهـم حـد الشـعور بالـدوار وممارسـة الجـنس , يلجـأون إلـى التهديـد فيمـا بعـد تمامـاً كغيـرهم مـن المرتزقـة والمـارقين بمفاوضاتهم المعهودة (الخمر بدل الكشة)

وفطومـة إبنـة المرحـوم أبكـر تكتفـي بـالنظر ، تحـاول أن توثـق مخلفـات الـوطن ، تحـاول أن تتنقـل بعيناهـا الجـاحظتين بـين كـل الحاضـرين ، حتـي

شباب المدينة المهندمين الوافدين من الأحياء العريقة على ما تعتقد , الهاربون من النعيم كما تجود بها عيناها البائستين , الصامتون عن الحق والحرب والنائمون على جرحها وهم يقهقهون وسط الخراب ، هنا يتقيأ أحدهم وهناك من وصل حد الخراء , يدخل المثقفين , يتهامسون فيما بعضهم يأخذون نصيبهم من الخندريس (ديلفري / سفري) كالعادة وأحياناً يجلسون بعيداً عن الأغلبية ، سيان هما في نظر فطومة , سواء جلسوا بالقرب من الجميع أو وحدهم , سواء إرتشفوها صامتين أو صارخين , فالخمر خمر والنشوة نشوة والجرح جرح والألم ألم .

عقلية السكارى لا تختلف عن عقلية العسكر , لا تختلف عن منطق الموت والرحيل والتحيز والتملك, إسحق العائد من السجن الوافد من بيوت العنكبوت , المتهم بالخيانة في منطق قوانين الدولة والعقائد السياسية , يجتمع في داره وهو عبارة عن غرفة حظي بها كانت في السابق من ضمن فصول مدرسة ما , ربما قراره السريع في الهروب من بطش الهامش هو ما جعله يحظي بغرفة , جمع أصدقاءه القداما للبت في أمر المعسكر قائلاً :

- هل يعجبكم حال هذا الوطن ؟ حال هذة المنطقة التي لا ترتقي لأيّ من الأسماء, مدينة , قرية , مقاطعة ؟

- ماذا سنطلق عليها ؟

- لا يهم , جمعتكم اليوم لأقول لكم شيئاً واحداً .العالم خارج هذه الأسوار الشوكية ينظرإلينا وكأننا أشباح , وكأننا أنصاف بشر متطفلين وبكتيريا ضارة , يتسائلون ما الفائدة من بشر كهذا ؟ مجموعة من الحمقى يعشقون الجنس والخمر في كل الظروف , يعشقون الإزدحام والإزدحام لمصلحتهم أنا أشفق عليهم بشدة أو ربما علينا

قبل أن يلفظ أحدهم بكلمة , جاءت فطومة تحمل خبراً سيئاً , تحمل خبراً تعودوا عليه كثيراً في الماضي والآن يتجدد .وفاة العم أمول والدها بعد الفاجعة والدها الذي تبناها أو ربما تبناهما المكان والزمان , سندها بعد أن إتكأت علي العدم بعد صرخات فراق وقبلات وداع من والدها يعقوب , بعد رصاصة حسمت صراع والدتها مع المرض .

كان العم أمول يصرح دائماً بأنه سيموت في الشتاء , بأنه سيفارق الحياه محتضناً نسائم الليل العليلة , سيذهب إلى الله ليقول له رفقاً بفطومة , لقد سئم حرباُ مع الأقدار أطلق عليها مجازاً مقامرة ، دموع فطومة تسابقها في الرد ،

الطفلة تودع آخر شخص على سطح الأرض تشعر بالأمان بقربه الأميرة تلعن يعيناها كل شيء , حتى ليلة ميلادها , حتى أول رصاصة وأول بندقية صنعهما الشيطان , لقد تعودت أن تعيش حياتها في ذاكرتها فقط أن تتحدث إلى نفسها دون غيرها ، تعودت أن تموت أكثر من مرة وتدفن نفسها أكثر من مرة دون فلسفة العزاءات , آه

ولسان حالها يقول :

- تلك الحروب يا أُماه جعلتنا نؤجل كل شيء ، عدا الحب ، ذهبت بنا إلى مدن الرماد ، ورمت بنا كيوسف في غياهب الجب ، ثمة ندوب في ملامح الطفل بداخلنا ، ثمة شوق لمدائن الرب ، تلك العصافير تحلق بأجنحتها بدلاً عنا ، تتحدث بلغة السماء ، وتتنبأ بالهرب ترى هل نحن تلك الحجارة ، أم ذاك الحطب

شيخ إسحق يدخل خلوته , يبكي , يرتل القرأن , يتمتم , يسترجع ما فقد من إيمان داخل السجن ويعود مرة أخرى ليرى فطومة في وسط الكتاب , بشفتاها اليابستين وعيناها المدمعتين والفتيات يخضبن كفيها . الشباب يصفقون للعروس الأرض, يجهزون حناجرهم في نهم وشوق ,

فـرح جـداً بعـد عشـرون عامـاً مـن الحـزن .مجـرة حلـم يقـظ أودعـت قلبـه الفـرح , فـرح بطريقتـه فـرح لأن الـوطن سـيُزف إلـى السـماء , كـان يضـحك ويبكـي فـي نفس الوقت ، رأى لأول مرة فطومة تبتسم ، لأول مرة تتحدث

سأل شبح فطومة:

- , ما هو إحساسك الأن ؟ هل انت سعيدة ؟

قالت:

- لا , فقـط قـررت أن أنجـب طفـلاً يُعيـد إلـيّ وطنـي , أن أفـرغ ذاكرتي على شاكلة جسد يحمل فطومة في داخله

4

ظلال تطارد أجسادها

كوتر حزين دفن نفسه في ربابة, بشعوذة لحنه وبعده السخي المزين بالارتعاش بذلك الفراغ الطويل الذي يترقب همس المغني, صفير الحمقى المستفز وضجيجهم العارم, تعاليق المسنين, لعناتهم, طعناتهم, عرقهم المتدفق عابراً تعاريج أجسادهم الهرمة, هم مجرة أشباح مثلهم مثل يحيى إدريس, أشباح محنطة فظة ويائسة أيضاً, يتداركون أنفسهم في الأفق المكتظ بهم, يتسابقون فيه ويسحقون خيوط الخلاص,أشباح المنسيين, المثابرين, لعناتهم المتدفقة على رؤوسهم الممشطة, فرصهم الذبيحة وضجيجهم المستمر, أشباح القتلى والقتلة, المقامرون والضحايا, أشباح ظلال متحركة يتتبعها السائرون نحو حتفهم نحو ظلال أخرى بعيدة جداً, أشباح أشباه مقبورة مخمورة, هم هكذا مستمرون في ظهورهم المرعب ورومانسيتهم الخشنة وهراء لياليهم الكئيبة, أشباح مذهولة من انقشاع الضوء وتصفيق الأشجار ومصائد الساحرات, يهابون خلخال المطر وهزل الرياح العاتية وملاطفة الداعرات, أشباح يرتادون المقاهي ومحطات القطارات التي تمارس الهروب نحو بقاعات مختلفة, نحو عوالم مبعثرة, يرتادون ملاعب الملاعين الستة في مثلث الكون الخماسي ونواصي الأرض خائفين من ظلال حقيقتهم, ظلال خائنة تنوء وتبوء وتتلوى, تمارس كل شيء في الوقت نفسه ، جمعة سمك يراوغ الوقت, يبتغي فرصة أخرى ليخوض حروباً جديدة, حروب ليست كتلك التي خسرها مع شبحه الشرس, كما لو أنه استفاق فجأة ليجد المشهد ضده, هي لحظة أفقدته إيمانه المزيف منذ البداية, لعن حدسه البائس ومبرراته الهشة, لعن ظله الهارب دوماً أو على الأقل الذي يهرب قبل أن يقرر هو ذلك, تذكر ليالي الشتاء المقمرة أسفل الجبل مع جدنا السر بولات, تذكر حديثه الثقيل جراء البوزة التي تعدها السُرة أم ضفاير حبيبة الشيطان كما يدعوها هو, كان

يضيف بين كل كأسين سجدة شكر عميقة تعبر عن زهده, يسرد حكاياته الثملة, كتلك التي تحفل بغزواته الجنسية وصراعه مع الحياة متفاخراً بصوته الضخم وهو يتنقل بين الأغاني على سطح قطار مكتظ بالفقراء ومعدومي التذاكر, دائماً ما كان يحظى بجمهور فوق ذلك السطح, حتى والدته كانت من المعجبات السريات, بعد نهاية كل قصة كان يقول له: لا تقترف أخطاء مماثلة, إياك أن تعتبرني قدوتك يا بني, اذهب للنوم ولا تكن فاشلاً, ربما تنبأ بمستقبلي كما يفعل دائماً بمواعيد إنجاب بقراته الثلاث الذي يزعم أنهن هولنديات, جلبهن والده وهو عائد من الحج, ومبرره الأوحد لكل من يحاول نفي ذلك بأن هولندا أيضاً بيت الله ، ولج الليل منتصفه, بضعة نجوم تلتحف السماء راسمة ألغاز غريبة جميلة, حفيف الشجر ونباح الكلاب الضالة, أصوات الضفادع تفسد لذة السكون وقدسيته, ظل ضخم يتجه نحوي, يغطي الأرض بجناحيه الكبيرين, شبح يحيى إدريس الجندي بشعره المنسدل على ظهره وأسنانه الفضية البراقة, أسنانه الفضية تظهر وسط تلك البقعة الكبيرة من الظل والعتمة في آن واحد, أخذ يقترب شيء فشيء بهدوء مخيف, يهمس بين الفنية والأخرى (كدنير, كدنييير, سرُنق , سرُررنق), تملكني الفزع وكدت أهرب كظلي الذي اختبأ تحت شجرة صمغ سوداء محروقة, يترقب ما سيحدث, هل سيلتهمني الشبح حقاً, هل سيأخذني رهينة إلى مقبرة أخناموس العابرة, استنجدت بربي, برب موسى وهارون, برب الأبقار الهولندية ورب جدي ورب الشبح, ضحك ظل يحيى بصوت يحيى الجندي الذي أعرفه جيداً, ضحكة لا تزال تسكن ذاكرتي التي نادراً ما تنسى, آخر ضحكة له قبل أن تنسفه طلقة مدفع ثنائي من أعلى الجبل, آخر جرعة ماء شربناها من شلال عباس, آخر علاقة حميمة أقمناها مع نسوة يحتطبن, وآخر صرخة سمعناها من ضحية خنقها عوزنا ونزواتنا وشراهتنا, سحبني من عنقي نحو الأرض, نحو السماء ونحو أشياء لا أعلمها, سحبني دون ظلي الذي بدأ خائفاً حد الالتصاق بحوائط الحي, حتى ظلال السكان اعتلت أسقف المنازل لتراني مذلولاً,

مجروراً, تذكرت جملة كنا نرددها قبل أن نلتحق بالجيش, جملة يلجأ إليها المؤمنون الحقيقيون (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم), حاولت جاهداً قولها بتمتمة تسمعها الآلهة, هي آخر فرصة نجاة في الوقت الراهن على الأقل, قلتها, قلتها بصعوبة بالغة, أسقطني منتصف الطريق من مسافة أجهلها, اختفى أو ربما تلاشي في الأفق ناسجاً خيوط دخان كتلك التي يفرزها صاروخ بالستي, تفقدت عنقي وأنا أركض نحو منزلي, هي لحظة تصورت فيها حياتي السابقة, حياتي الفاشلة بلا شك, دخلت في نوبة ذهول عارمة, يداي ترتجفان بل جسدي كله أخذ يرتعش ، جلست مرغماً في انتظار بزوغ الفجر الذي لم يأتي سريعاً, عرق مالح يسري على جسدي, عرق الخوف والهول, عرق الذاكرة التي تنبض ببطء, تفقدت محفظتي التي تحتفظ بصور بعض جنود كتيبتي وضباطها القادمون من مصنع القرار, تفقدت جميع من يسكن هناك, يحيى إدريس يقف محاذياً لمانتو وجون بأعين شريرة, سن الفضة يبرق حتى في الصور من فمه ذو الشارب الكثيف, هي صور التقطها أحد الجنود العائدين إلى الأماكن الآمنة أثناء استلامنا الموقع العسكري المحرر جزئياً كنا نقف جميعاً لأداء التحية العسكرية للجرحى والقبور الجماعية, مصطفى بعشوم يصرخ بعدها كعادته وكعادة القادة :

- (وداعاً أيها الأشاوس, أبقو عشرة على البلد),

كنا نقف دون ظلال تقاسمنا المشهد, ربما هذه هي لعنة الظلال الرافضة لمنطق الجنود, ظلال تطاردنا الآن لتعاقبنا على الأرجح

- يا إلهي, كيف ؟
- أيعقل أنك لم تغفر لنا!

أخذت حقيبتي الصغيرة محاولاً الابتعاد عن هذا المكان المرعب, من تلك الذكريات التي تطاردني, لحظه أشبه بأن تهرب منك فقط, تهرب دونك, من تلك الأشباح التي تتلصص طريقك, ربما جدي بولات سيستطيع أن

يحررني من شبح يحيى الذي سيقتلني لا محالة, طريق القرية المعبد بأفرع الشجر وروائح البراز النتنة, براز الحيوانات والبشر على حد سواء, أبار المياه الجوفية المغطاة بالخشب ومزينة بالدلو, قطعان النعاج والأبقار وقطيع البقرات الثلاث الهولنديات خاصة جدي, نسائم الفريق العليلة لم تفلح في إيقاظ حواسي المتوجسة من ظلال الأشياء حواس حبيسة خوف ممتد قاسي, تملكني إحساس متذبذب بالأمان, إحساس غير منطقي,غير دقيق, بعد أن ألقيت التحية على جدتي وشقيقتي مريم لم تدم تلك الابتسامة وذاك العناق طويلاً, سألتهما عن جدي السر ليشيران لي نحو شجرة حراز كبيرة تتوسط مزرعته, خطوت نحوه بخطى تعبة كمن وجد الخلاص أخيراً, كان مشغولاً بالغناء خلف الراديو وهو يرقص, أمرني بالجلوس مبتسماً ثم بإشارة غريبة فهمت منها أن أشاركه الغناء, هو هكذا يخلو بصديقه الناشيونال وكأنه يختبأ من سواه, بدأت أغني معهما ومع محمد الأمين ذو الأنفاس الطويلة

- كبرت كراعي من الفرح نص في الأرض نص في النعال ، آه يا سعاد آه سعاد

لم أكن في موقف جيد يسمح لي بمواصلة الغناء وجدي ما زال يتابع ويصفق بطريقة مستفزة, لاحظ شرودي وهلعي المستمران, لاحظ عيناي المتنقلتان نحو كل الاتجاهات, ربت على كتفي وهو يُدير عجلة الصوت التي على الراديو متسائلاً,

- ما بك ، يا بني؟ ماذا أصابك؟ تبدو عليك علامات أرق جمة, قل لي هل أنت بخير؟

وضعت رأسي على صدره الدافئ, افتعلت عناق طفولي أقرب لرحلة بحث مضنية عن لحظة أمان, دموع ساخنة أخذت تتدفق بشراهة, دموع تعبر عن ندم حديث النضوج, تعبر عن خوف طويل وهواجس ممتدة, عن ظلال الأمكنة وأشباح الشخوص وطقوس الموت الجماعي إضافة إلى

يحيى إدريس اللعين و أشكال الضحايا الفوضوية, كدت أخترق صدر جدي الذي احتواني بكامل هشاشتي وجبروتي ورعبي, كدت أخترقه لأبقى هناك مدى الحياة, يداه تعبثان بشعر رأسي الخشن تتخللان مناطق لم تصلها الماء منذ مدة, فالخائفون لا يحبذون الإستحمام, لا يحبذون أن يتعروا أمام ظلالهم, هذه السمة ملازمة لجميع القتلة متسخين دائماً روحاً وجسد حتى وإن أخفوا ذلك تحت البِدل والمعاطف والعطور الأجنبية, سألني بنبرة مواساة أنيقة, راجياً أن أحدثه عن فجائعي التي أرغمتني على البكاء, هو هكذا يتألم نيابة عن كل مجروح وعن جميع سكان الأرض, بخطى كهلاً يترقب تلاشي أحفاده واحد تلو الآخر اتجه نحو المنزل ليزودني بجرة ماء تدفعني للاسترخاء, وكلما ابتعد خطوة اتخذ هيئة يحيى إدريس, وقع أقدامه تنوء ووقع آخر لظلٍ كبير يقصدني, وما أن تلاشى اكتملت صورة الشبح المرعب, صورة يحيى تطاردني من جديد, ركضت عكس اتجاهه ركضت كمن يطارده جميع جنجويد الأرض, كنت واحد منهم في ماضي قريب, لم أستطع تجاوز ظله بعد كل هذا الجهد ما زلت في متناول الشبح اللعين, سقطت, سقطت, حاول أن يبتلعني بعد أن قال لي حرفياً:

- C'est la fl هذه هي النهاية

أفزعني ظل يحيى, لغة أخرى اتخذها الشبح, لغة أخرى لا أفهمها, يحيى إدريس الحقيقي أيضاً لم يكن يعرفها, حتى لغته المحلية كانت ركيكة بعض الشيء, أومأ برأسه في اتجاهات مختلفة لم أعيها, أخرج من ظله ظل آخر صغير أدخلني فيه ورحل متمتماً باللغة الفرنسية, لغة حزينة سوداء كذاك الظل الذي أسكنه الآن

- Tue s coupable ساقتل مذنب

****

5

أنثـــى مزيفـــة

عبر حناجر العصافير نبكي, نغرد, نهتف, نثور, عبرها تماماً نفعل كل شيء كـــأرواحاً فضحها البكم أو كـــأحراراً استعبدتهم اللغة, نفعل كل شيء عبر العصافير عدا الطيران تحلق وحدها لتنثر أصواتنا الهشة في الفراغ, ثمة شعور سيء يعترينـي ربما صديقي فارس أيضاً تنبه للأمر, تنبه لشرودي الدائم المستميت هو لا يحبذ أن يسألني عن التفاصيل التي اخبأها, دائماً يعيرني براح خاص أتسكع فيه وحدي, جلست أمامه ذات قهوة بكامل أناقتي وكأني في مشوار سواه هو يعرف كل محاولات مداخلاتي اللعينة يعرف تلك التجاعيد التي تكسو وجهي, ودون تفكير طويل أو حتى مزاح لطيف هاجمني بتودد,

- ماذا تود إخباري ؟

تباطأت قليلاً محاولاً التريث, ابتلعت جزء كبير من كوب ماء بالقرب منه ثم أردفت:

- أحبها يا صاح, أثارت جنوني,

ابتسم فارس بل طالت ابتسامته التي عهدتها دائماً في مواقف ليست مشابهة مضيفاً,

- أخيرا اصطدمت بشخص سرق منك وقارك, من هي ؟ هل هي ماركسية مثلك ؟

تناولت كوب قهوتي لأفلح في إيجاد عبارات توصفها على الأقل لكن دون جدوى,

- الأشياء الجميلة لا تملك اللغة جملاً تنصفها, لكنها باختصار أكذوبة ممتدة قابعة في جوفي الممتد أو ربما باقة ورد سقطت على صدر

جنـدي نفـذ منـه الرصـاص, امـرأة وليسـت امـرأة كبـراح مطـوي تحـت وسـادة, وأنـا حزنـاً يمشـي, بندقيـة صـدئة, عطـر نسـائي كـان حاضـراً بقـوة فـي أسـطورة المـوت بالمحاليـل, منحـت قلبـي للطريـق والشـمس, رجـل ولـيس برجـل كنصـف ابتسـامة مسـروقة مـن جيـوب الفقـراء أو مـن جثـث هاربة من النص

- لقـد غرقـت, أنـت مليء بهـا يـا خالـد, لـم تقفـز فـي مخيلتـي أبـداً أن هنـاك شخصـاً مـا علـى مسـتوى البسـيطة يمكنـه سـرقة فـؤادك, هـا أنـت كمـا لـم أتوقـع جـرذ فـي مصـيدة لا يحـاول الفكـاك حتـى, سـنلتقي مسـاء لنخـوض في الأمر إن أحببت ذلك,

قالهـا ولـم ينتظـر ردي هـو هكـذا يحـتفظ بجـزء مـن وجهـة نظـري فـي رأيـه, سـدد الفـاتورة ورحـل, صـحبته بنظراتـي إلـى أن تلاشـى, بعـد لحظـات وجـدتني أزرع الطريـق المـؤدي إلـى المنـزل أو كمـا يحلـو لـي تسـميته النـزل, تمـددت علـى كتـاب نسـيت أن أطويـه لـيلاً, صـفحة دافئـة احتـوتني كلمـات ممشـوقة تهـرب لتعـانق أقـواس عجميـة محاصـرة, كلمـة بذيئـة تجلـس وحـدها تهـرب مـن سـطر إلـى آخـر تحبـذ المكـوث بـين الإشـارات, أصـوات كلمـات مـن صـفحات أخـري ثـرن ضـد اللغـة, صـفحات فارغـة غارقـة بـدماء حسـناوات صـنفتهن أبجديـة كاتـب متحيـز, وعـدت مـرة أخـرى علـى صـورتها المطلـة مـن نافـذتي الصـغيرة, مرتديـه أبهـى وجـه مـن وجوههـا التـي علـى منضـدة غرفتهـا, تسـللت داخـل الكتـاب, كنـت أراهـا وهـي تـدخل صـفحة مـا, كنـت أراهـا وهـي تتوسـط كلمتـين متناقضـتين كلمتـين صـبيتين, وضـعت سـاقيها علـى فاصـلة مقابلـة راسـمة ابتسـامة خفيفـة ثقيلـة فـي نفـس الوقـت, عيناهـا تشـعان فأتقمصـهما, أعيرنـي بعـض براءتهمـا أشـحذ نصـل عينـاي لأرانـي مـن خلالهمـا شـراعان يرسـمان نـيلاً نبـيلاً يتلـذذ بصـقيع المسـاء شـراعان يختـزلان الحيـاة فـي مغازلـة الريـاح وكعجـوز أيقـن أن ذاك الطريـق لا يـؤدي إلـى الـرب أقفلـت النافـذة وأسـدلت السـتار كـي لا تهـرب كـي لا تتلاشـي, خشـيت إزعاجهـا, قبلـت الكتـاب ورحلـت

بعد أن أحسست برنين هاتفي الذي دائماً ما أضعه في الوضع الأخلاقي, أسرعت في الرد إنه فارس يطلب مني الذهاب إلى نادي الأدباء لحضور حفلها السنوي, أوشكت أن أعتذر لكن تذكرت بأنني مشارك أيضاً, قبلت الكتاب مرة أخرى ثم أدلفت :

- لا تخافي سأعود لاحقاً

جلست بالقرب منه في سيارته البالية التي أدعوها ممازحاً السلحفاء, تفقدت علبة سجائر تقبع يمناي وأخذت أتنقل بين التفاصيل الممتدة, أتنقل دون أن ألتزم بتحليلها مستمراً في سحب الدخان الذي يبدو ممتعاً للغاية, مستمراً في خلط قضيتي وحبيبتي وحلمي في قصيدة واحدة أرميها من على مسرح الأدباء الذي نقصده, قصيدة اختصر فيها كل شيء بالتفصيل, لم أتنبه حتى أمرني فارس بالنزول, تنقلت ببصري عبر الحضور عبر الممرات الصغيرة, صف أمامي مكتظ بالدبلوماسيين وصائدي البشر مليء بمخلوقات الزومبي, ملأت بطونهم المترهلة تلك المناضد الصغيرة المحملة بصواني الفاكهة وقنان المياه والعصائر التي تشبه الدماء, لصوص الوطن يقبعون أمام الجميع, هم هكذا أمام الجميع عدا في الدفاع عن الوطن عدا في الأمراض والأوبئة وفوهات البنادق, انسحب جزئي العاشق من جسدي وهبْ ذاك الجزء المتمرد, الجزء الرافض للتطبيل الجزء المنحاز للفقراء والعدالة والمظلومين, حتى حبيبتي غادرت قلبي المكسور أو ربما انزوت في ركن ما غير آمن, ركن قد تصله بعض الأبيات الضالة, أدرك فارس أن ما سيحدث لا يحمد عقباه أدرك أن عملية انسحاب فاشلة ستُدبر بعد هنيهة, ذكر أحدهم اسمي للتو, وبخطى متلهفة وجدت نفسي على المسرح, شخص ما أعرفه جيداً أخذ يرتعد وكأنه يحاول الدخول في ذاته, بدأت أرسم لوحة فنية على وجوه الشرفاء الذين دائماً ما يجلسون في المؤخرة, دائماً ما تُحجز لهم المقاعد الخلفية, لوحة فنية ضخمة متشعبة حيث كل من في القاعة وجد نفسه كما يجب أن يكون وأيضاً كما يجب أن لا يكون, اللصوص والبرابرة والفقراء والتجار الجشعين والنخاسين حتى

حبيبتي كان لها موقعاً هناك, أعشقها حد الهذيان, كنت أراها في وجوه كل مخلوقات الأرض عدا الإنسان, وكناقوس من طين أهمله رواد الكنيسة أو كنطفة في كف عاقر أنجبت فيما بعد زهرة أبكي لتستعيد الأشياء شيئاً من التوازن, ربما حيلة أقنع بها الجزء العقلاني مني لا أدري, فقط أبكي وحدي معانقاً شبح الأرض الممتد الذي لا يملك أذرع تطوقني أو لغة تواسيني, ودون شعور أخذ فارس هيئة الأرض وكطفل صغير احتضن أشلائي وقصيدتي, هو هكذا ينتشلني من مواطن الحزن الدفين محاولاً سلب الرعب الذي يسكنني ، أودعني منزلي وذهب إلى حيث تنتظره زوجته آمنة التي تعتبرني أخاها الصغير, لمحت غرفتي ذات الأبواب والنوافذ المواربة إيماناً مني بعدم إغلاق المعابر لأننا دائماً ما نترك فرصة للعائدين للذين تقاسموا معنا حياتنا للذين خرجوا آخر الليل دون أن يخبرونا وللذين لن يعودوا, خرجت حبيبتي من ذاك الكتاب, قبلتني راسمة ابتسامة شقية كفيلة بأن تُذيب نبي ملتزم, مررت أناملها على تقاسيم وجهي الأفريقي الجاف, أصبحت في عالم آخر, قافية هاربة من فم شاعر برجوازي تعبر أمامي, خريطة هاربة تسأل العابرين عن هيئة النقل النهري, ربما سقطت من جيب سفينة أو تايتنك آخر, ظننت أن زراع المسافة أقصر من أن تفتعل لقاء عابر, أقصر من أن تكتب رسائل, ها هي ممتطية جواد الليل وأنا محارب يمشي وراء قافلة المقاتلين يمشي محاذياً لهودج الأميرة الفاتنة ليضرب الحمالين كلما هزلت أمشاطهم, أميرة راقصة تحبذ الاستحمام, رأيتها أكثر من مرة أثناء ذلك, لمحت كيسلي الأوغندية وهي تدلك ظهرها الناعم وأفخاذها وأنحاء جسمها المتورم حتى ذاك المنعرج الذي يؤدي إلى الهلاك, تغمس الأميرة داخل ماء الورد الأكثر قداسة من أن يلامس تفاصيلها, وحبيبتي تشق أودية الغابة على جواد, ما أجمل من أن تسافر عبر قبلة إلى حيث لن تأتي بكامل رشدك, رحلة عبقة عبر الجسد وصراع يكون فيه العقل خاسر دائماً, وعند عودتي من رحلتي تلك لم أجدها, تبخرت هكذا في الفراغ أو ربما تسللت داخل الكتاب, انتابتني نوبة

حـزن عميقـة, حيـز مـن الـدفء يتـدفق, تشـتهيه أطرافنـا وتبحـث عنـه فـي جيـوب المعـاطف الفارغـة مـن الصـور وثقـوب يتجـدد عمقهـا, خطـوط لا تنتهـي, نظـرات مجهولـة يتبادلهـا المـارة, أسـئلة مبعثـرة علـى الأرصـفة المتهالكـة, جـوازات هاربـة نحـو أوطانهـا ومشـردين يمقتـون الصـباحات المفتولـة, رسـائل ورقيـة ممزقـة تجمعهـا ريـاح الأمسـيات, أصـدقاء بـارعون فـي التنكـر بـارعون جداً فـي خلـق مشـاعر متناقضـة, تلفـاز صـغير شـامت ضـاج صـنفه والـدي ملحـد وصـنفته أمـي ماركسـي, بقايـا أقـوام سـابقة تتجـدد فـي ملامـح الـبعض, امـرأة نحيفـة هجرهـا زوج جـلاد جـائر تسـتنجد بسـت الـودع باحثـة عـن حـل لا ينـزل مـن السـماء, راهـب يرتـدي حمالـة صـدر نيابـة عـن ذوات الصـدور السـائبة, تلـك هـي الحقيقـة عنـدما تتجلـي فـي أبهـى صـورها وتضـع المسـاحيق النسـائية داهمـتُ فـارس الـذي يسـكن لـيس ببعيـد, دون أن أطـرق البـاب أو حتـى أن أصـدر صـوت يـوحي بـذلك, هـي عـادة غيـر أخلاقـة لازمتنـي, قـادتني خطـواتي التـي لا أتحكـم فيهـا عـادة إلـى مكتبـه الصـغير, آثـار ليلـة البارحـة جليـة علـى المكـان, بـدأت بتقليـب الكتـب متفحصـاً عناوينهـا, تبـاً إنهـا أجاثـا كريسـتي, لا أعلـم مـا هـي الأسـباب التـي جعلتنـي أحـب أعمالهـا ربمـا عشـقي للتلصـص وبوليسـية الأشـياء مـن أهـم الأسـباب التـي جـذبتني, آمنـة بخطـى متفحصـة وصلت مكتب زوجها, أضافت بعد التحية:

- قهوتك على الغاز,

وكأنهـا علمـت مسـبقاً بقـدومي, أجهـزت علـى كتـاب تلـو كتـاب وفـي كـل صـفحة أشـرعها أجـد حبيبتـي بكامـل زينتهـا, تمـارس قفزهـا الطفـولي بغـنج الأنثـى الناضـجة, تحـتم علـيّ أن أعـيش معهـا قـارئ يلـتهم الكتـب لا لشـيء سـوى لقـاء أنيـق مـع امـرأة تلتحـف الـورق, امـرأة خُلقـت مـن ضـلع أكثـر اعوجـاج, مبهمـة, غامضـة, رحيمـة, لعينـة, هـي مجموعـة أضـداد وتناقضـات ممزوجـة فـي جسـد هـارب مـن سـريانية اللغـة أو ربمـا فينيقيـة الأبجديـة لتبلـورني سـطراً ركيـك مـن فائض الحب .

أصحبت كمن يبحث عن أنثاه التي لم تبلغ والدتها الرشد بعد في حفل تنكري, كلاً بقناع يفضله, بضحكاتهم المجلجلة ووجوههم المسخه ووقارهم المزيف, ربما هي أيضاً تحت ذيّ ما, ذيّ غير الذي سحرتني به, أنيابهم تمتد خارج أقنعتهم تمتد لتلتهم لذة الوجود, لعابهم يسيل من فرط النشوة, أضواء خافتة تمر الأشياء عبرها بسلاسة ومكر بائنان, جدي الثالث عشر اسحق موكورو يجلس في ركن نائي عن الجميع بقناع بدائي تُبقي لحيته خارجها, يغني بصوت غليظ بشع, جدتي فقط من كانت تنتشي وتستمتع لطواحينه الصوتية, هو فقط من كان يظهر واضحاً خلف قناعه المطبوخ من جلد الذئب الشيطاني ربما صوته ولحيته يقودان إليه, موسيقي مرعبة تكتنز المكان وتحبس أنفاسه المختلطة بالصراخ, يستغل البعض لحظات مشابهة لطرح مخاوفهم لإخراج ما لن يستطيعون إخراجه بوجوههم الحقيقية, نوبة جبن قاسية تتلبسهم, جدي إسحق سقط على الأرض كذبيح بوسني, زبد ناصع يتدفق من فمه ذو الشارب الكثيف, أزحت قناعه الذي لا يشبه الأقنعة الأخرى ليستطيع التنفس أو لأصطنع له ذلك, لكنه زفر آخر أنفاسه, رحل إلى حياة أخري كما يجب أن يكون يا إلهي ــ جدي يقف قربي, صدمة مميتة تلبستني, أزل أحدهم القناع, رباه إنها خديجة ماركي متنكرة على طريقة جدي (إسحق موكورو), حبيبتي المقنعة التي سكنت كتاب ما في غرفتي جثة ممددة أمام أشخاص زائفين, تركتي حقيقياً لتموت مزيفة, أو ربما كان مقدراً لها أن تموت في حفل تنكري

6

مشاهد محذوفة

ذاك الصدى المجروح أنين صوت ودوي صرخة ومحاكاة مأساة الروح العالقة بذاك الجدار السوداوي , العالقة بعنف , المنقوش قبل الجدار المزدحم بالخطوط المسننة, الإحساس بالرغبة في تكذيب مشاعرنا لافتعال فرصة للهرب أو الإفلات بطريقة ما يتجلى في الدواخل, ورغبة أخرى مضادة تنسجها الإرادة لتصارع ذاك الرعب المهول أيضاً

أدمعت عينا السماء ذاك المساء, ذاك المساء المُعد مسبقاً في مخيلة الرب, الأمطار لا تتوقف _ الفقراء خارج منازلهم خوفاً من سقوط الأسقف المهترءه وغرف "التبتبي" يتساءلون متى ستسقط ؟

يرمقونها وهي مبتلة تماماً, يسيل منها الماء الممزوج بالطين مثل ما يتصبب العرق المعتق المختلط بقطرات الماء التي تقبلتها جباههم, النسوة يدثرن أنفسهن وأطفالهن بجوالات السكر الفارغة والشباب يهرولون لفتح المجاري تحسباً للغرق_ تحسباً لطامة كبرى قد تهبط عليهم, الفتيات يجمعن الأواني والملابس المبعثرة هنا وهناك ويعدن ليجلسن بالقرب من الجميع بأجسادهن المبتلة وملابسهن المتلاصقة على مفاتنهن ليتقاسمن غطاء الجوالات الذي فوق الجميع ويتصارعن معهم في السحب إلى أن تستحي السماء التي لا تستحي سريعاً ، الشيء السيئ حقاً أن "التبتبي" يسقط لاحقاً عندما تتوقف الأمطار ويأتي الظلام عندما تصمت جميع الخلائق عدا أشيائهم التي تتحرك, بضعة همهمات وتأوهات_ ففي الشتاء ليس هناك دفء في المتناول عدا أحضان بعضهم هي لحظة ينسى فيها الفقراء عوزهم ويُختزل الغِنى في نشوة

يونس يحبذ الخمر في هذا التوقيت بالذات, يحبذ الطرق المؤدية إلى بيوت الأموات وبالأدق خمارة هدية بت الشيخ, حيث أن نشوة الخمر في الشتاء تضاهي النشوة في غيرها من الفصول, حيث يعود التائبين والشيوخ المزيفين إلى مزاولة النشاط, هي لحظة تتزين فيها الخطيئة لتظهر بأبهى صورها _ جلس يونس مع من عاودهم الحنين إلى تلك الفاتنة وهبة بت الشيخ أخذت تضحك بشراهة, ضحك ينمُ عن عهر عميق كما علق احدهم ثم أردفت :

- ما قلتو خليتوها , بقت حلال ولا شنو

لم يعلق احد سوى مُسِن في إحدى الزوايا بصوت متقطع جراء الثمالة

- هو عرقي البلح بتخلا والله إلا الموت

دس يونس بضعة جنيهات في أثدائها, حركهما بابتذال ليستقر إبهامه باحدي الحلمتين المكفهرتين وبعد اخذ جولة شبه دائرية بشكل عشوائي حولهما عاد بنظره متسائلاً :

- هل هو بِكري ؟

هي بشبق الأنثى :

- ماذا تقصد ؟
- العرقي طبعاً

هي بعد أن أصدرت ضحكة مجلجلة غلفت بها أحاسيس تحركت داخلها للتو:

- أكيد

ملأ كأسه الضخم, تناوله في تلذذ يوحي للناظر بأنه سكير قديم واخذ يسترسل في أحلامه البائتة المنبوذة من قوة ماورائية كما يعتقد والمعرقلة من جهةٍ.. ما, قال في نفسه ثمة أشياء عندما تتعمق فيها ستكتشف كم

كـان أيمانـك مزيفـاً ، العجـوز الثرثـار لا يكتـرث لشـيء ولا يبجـل قدسـية الخمـر إذ يضـج ويصـرخ ويصـدر أصـوتاً أشـبه بالضـراط مـن فمـه الواسـع وشـفتاه الكبيـرتين, ربمـا هـذه طقوسـاً تخصـه عنـدما يصـل حـد النشـوة, أخـذ يدنـدن بصـوت بشـع مقطـع مـن أغنيـة تخـص الحقيبـة وفـوراً قاطعـه يـونس مجاملاً:

- صوتك جميل يا صاح عليك مواصلة الغناء,

فـي الوقـت ذاتـه ثمـة سـكارى آخـرين فـي منـزل مجـاور يرقصـون علـى إيقـاع أب قـزا احتفـاء بعيـد مجهـول صـنعته الثمالـة الممتـدة, عيـد أسـطوري يحظـي بـوزن ثقيـل فـي وجـدان المنسـيين, شـيء ثقيـل جـداً أن ترافقـك طفولتـك إلـى شـبابك, كـأن تسـتحي مـن الغربـاء, كـأن تبكـي عنـدما تؤلمـك الأشـياء, كـأن تتكـور فـي مضـجعك معانقـاً وسـائدها السـمراء الأبنوسـية التـي تشـبه والـدتك ذات صـقيع نـافر, والـدتك التـي تخشـى الظـلام دونهـا فتعـود منتشـياً بعـدة طـرق ـــ خمـر أحيانـاً ودُمـا أحـايين أخـرى, نشـوة يسـتلذ بهـا جسـداً ممتـد, نشـوة خمـر أو نشـوة خمـر أيضـاً وحـزن عميـق يأخـذ هيـأة رغبـة عارمـة للـرقص رقـص عشـوائي علـى ضـجيج الـذاكرة العتيـة وألحـان تبـدو شـيطانية إيمانيـة نوعـاً مـا, حريـراً مهتـك كـان فـي المهـد ثوبـاً جهنمـي لأنثـى يوسـفية عُـرف فيمـا بعـد بأنهـا ماتـت ليلـة مـيلاد الحـرب, وخريـر ميـاه متكتلـة تعـدو بجانـب اليـم المنهـزم ـــ يـم يبتغـي النجـاة تمامـاً كخمرنـا البلـدي الـذي يسـعى للانـزلاق مـن منطـق الصـواب , لا. لا , هكـذا كـان هتـاف السـكارى البعيـدين عـن مفـردات المـدفع المُغنـي وصـوت الضـحايا, هـي أغنيـة لكنهـا ليسـت مـن صـفوة الأغـاني المرغوبـة فأحيانـاً نشـتهي مـا يجـب أن لا نشـتهيه بتاتـاً كلقـاء أبـدي مـع مـن سقطوا منّا ونحن نمضي .

جـاء الصـباح البهـي علـى صـوت جـارتي رِميلـة بائعـة سـت الكمونيـة وهـي تسـتنجد وتسـتغيث بسـكان الحـي, تسـتنجد بمـا تبقـى مـن إيمـان فـي قلـوب

انصاف المؤمنين, فزعت من مرقدي _ هرعت إلى حيث الصوت لأجد رميلة تولول وتضيف بين الحين والأخر تمتمات ميزتُ منها :

- هوة غرفة التبتبي على صغاري

استدرت لأرى من الآتون لكن, ليس سوى محجوب الدرويش مهرولاً منحنياً جراء ثُقل مسبحته, مسبحة اللالوب وبعض المخمورين وهم يحيكون الطريق ملبيين نداء رميلة _ نبشنا الحطام وأزلنا كل شيء, أسرعنا في عميلة النبش وفي عبثنا المضني تذكرنا أن رميلة لم تتزوج ولم تحبل بعد بل لم يضاجعها احد سكان البسيطة, وقبل أن نعلق على الأمر هاجمتنا هبة بت الشيخ قائلة:

- رميلة شاربة دُما كالعادة لكن انتو شاربين شنو

وأخذت تضحك بخبث وعهر جليان حتى أن نهداها كادا أن يقفزا من خلف ملابسها نهداها اللذان لم تكبلهما بحمالة صدر قط, وكأنهما مصيدة أنيقة أو شهابان يطاردان شيطان الرغبة , آه إن رآهما الشيطان حقاً لبايع النبي

غادر الجميع دون تعليق, نقع أرجلهم تفتعل غبار متعرج ثمل يتموج ويمور, تنقلت بنظراتي نحو الفراغ اللا متناهي, عدت على إحساس شخص ما يربت على كتفي لأجد محجوب الدرويش يربت على جثة هامدة ليدب فيها نصف روح, أشار لي نحو بساط منسوج من سعف النخيل الهارب من شمال البلاد_ أمرني بإيماءة تعني الجلوس او هكذا خيل لي, قال بعد أن تمدد بقربي واضعاً مسبحته التي تمددت أيضاً جراء طولها المفرط وكأنها تعبر عن زهد وإيمان درويش غريب الأطوار, ولأنني لا أعي علاقة الدين بذهاب معظم العقل بدأت أترقبه بدهشة وخوف في نفس الوقت تائقاً لما سيقوله ، زفر نفساً قاسياً لم يبدو كذلك عند شهيقه ثم أردف:

- هل تدري لِم احبك يا يونس ؟ لا ادري لماذا_ هل لأنك لا تشبه البقية ام أن البقية لا يشبهوك , لا اعلم

أشار لي نحو شجرة طلح كبيرة بالجوار ثم أضاف_ جميعنا ننظر إلى الأشياء وفق اهتماماتنا فهناك من يرى تلك الشجرة ظِلاً جميل وآخر يراها بل ويتخيلها مخلوق يستحق الحياة كالبشر تماماً واحدهم في مكان ما يسِن فأسه ابتغاء قطعها وفق وصايا نسوة الحي,نحن لا ندري من نحن بالنسبة لحطاب بالجوار أو لإمرأه حديثة الزواج في مجتمعنا المتحرك_ المتحرك نحو ضدين أو أكثر , أو حتى للعابرين

يونس والدهشة الواثبة تواً فوق وجهه:

- الغابات لا تسكنها الأشجار وحدها يا محجوب, أظنك تفهمني_ ثم ما الذي دفعك لتحبني مع أنني أشبه البقية, أسكر وانتشي مثلهم أتناول كمونية رميلة وأضاجع البغايا ولا أُصلي أيضاً

هو بعد أن رسم ابتسامة عفوية:

- ثمة إنسان داخلك, ثمة جزء كبير منك إن لم يكن معظمك يأخذ هيأة نبي, شخصاً معتدل خلف وجهك المشاغب

هب يونس دون أن يتفوه بكلمة قاصداً الوادي المحاذي للمنطقة تاركاً محجوب يقهقه ويصرخ, وفي مشواره تذكر أنه يكره فكرة أن يتقمص الدراويش ادوار الآلهة بل ويستبعد فكرة أن في مرحلة ما من الإيمان يفقد الإنسان توازنه, جلس على الرمل كنسر تائه حلق في سماء ممتدة قص مخالبه كي لا يرعب الرياح, أطلق العنان لجناحان ملاّ الرفرفة فوق المدافع _ شيد سجنه الأبدي في دهاليز فضاء رحب ليصطدم بنبي خرج خلسة من جنة ما ليسقط أمام صياد أفريقي اتخذ الغابة مخبأً

الحادية عشر مساء بتوقيت البلاد حيث خطوط الطول لا تأبه بمشاعر البشر ولا حتى لخط الاستواء دوراً في الواقع, نعقد صفقة وهمية مع تلك الغيوم الممطرة لتذهب بعيداً حيث الكل في بناياتهم الإسفلتية المسرمكة والمزينة بالإنترلوك الذي يشبه إلى حد كبير بسكويت الجندي, ركائز من

ورق تقضمها الرياح حيناً وأخرى تحاول الهرب من بطش الأوتاد المغازلة, غزل عنيف منقطع, لنجدنا غرباء جداً غرباء خرجوا من عمق المألوف لينسجوا وطناً وقلوب لا تصدأ وحق هزمه باطل منسوخ من أباطيل عديدة ممتدة, غرباء تدفعهم أحاسيس الفقد والعناق والارتماء على أحضان دافئة مركونة في زوايا لا تشبه زوايا الاختباء, غرباء عانقوا فراغات الجمل والأرفف المتسخة بأيادي الأدباء المزيفين الخاضعين لأصحاب الياقات الفلوكلورية, غرباء جزأتهم المأساة إلى مضامد, أنثى على الرصيف تجمع جروح المارة في قصيدة تجمع أنين المكان مع الزمان لتسرقهما طفلة وتتبخر كأنشودة حذقه تتلوي بين الحضور لتكون في غد ما نطفة تلتحم بمهبل الخطيئة لتحبل وتلد نبي سيقول لنا فيما بعد تقاتلوا وفيما بعد أيضاً سيقول الرب لم يُأمر بالرسالة, لنعود كغرباء ناموا فوق نقطة لحرف قصي في صف الأبجدية الطويل .

هبة بت الشيخ تصنع عشاء يكفي لمن يحظي بمعاشرتها منتصف الليل بعد نهار قضته في تقصي سراويل السكارى , هي دائما تبحث عن أشياء ضخمة تفتت به صخور جماحها, لا ترضخ لأصحاب الإمكانيات المتوسطة بتاتاً _ أطفال الحي يتسابقون دائماً دون أن ينصبوا خطوط نهاية أو ربما سباقهم سباق أبدي حيث القبور تتكفل بإنهاء اللعبة, تتكفل بمن سيصلون إلى الجهة المقابلة وكيف, يضحكون في وجه مختلف المآسي والأقاصي, يطاردون حِفل الشواء ودور المآتم ليسدوا رمق الليالي البائتة, وأناشيدهم تُعبر دائماً عن المفارقة بين الوجود والعدم, حينها تذكرت أنشودة كتبها صديقي ميانق مقوق ذات حزن يقول مطلعها:

بياض ذقون مصبوغة بلون النفاق

مبنية فوق قبة وخدم

محمية بجهل القطيع

دين مقسم قبتين

لا عيب في ديك يؤذن في الكنيسة

أو قِس يرتل آيتين

مطـر وابـل يسـتأذن الهطـول الآن, يسـتأذن فـض الأسـواق الشـعبية وأنديـة الـضالة تحـت أشـجار النـيم الظليلـة, يسـتأذن هـدم معظـم المنـازل البلديـة التـي لا تقـوى علـي الوقـوف, يسـتأذن ثـم يـأتي دون انتظـار الـرد والقبـول لنهـرب مـن جديـد صـوب الفـراغ خوفـاً مـن مـآل مسـتور معلـوم فـي نفـس الوقـت, تـزداد أسـعار القنـب الهنـدي فـي مثـل هـذه الأيـام بـل تكـاد تكـون فـوق الممكـن وفـق أسـباب لا يعلمهـا حتـى المـدمنون, أسـعار البغايـا أيضـاً تتضـخم حيـث يختلـف من سن إلى سن وطلح او دون طلح ومعايير أخرى اجهلها

تأوه يونس ثم أردف:

- فـي وقـت مـا مـن ضـمن المسـتقبل سـندرك كـم كُنـا عصـيين بعيـدين عـن ذواتنـا, سـندرك كـم كنـا جـاهلين عـن سـجيتنا كبنـي آدمـين نحـن ذاك المجهول الذي يتربص بنا

بـزغ الفجـر مـن جديـد دون جديـد, اليـوم مرتـب دون ترتيـب ضـمني, الفتيـات يسـتعجلن مائـدة الفطـور ليـذهبن إلـى أوديـة قريبـة مـن الحـي, ليغسـلن ملابـس أسـرهن ويمـلأن أوانـيهن ميـاه شـرب نظيفـة ثـم يتفـرغن للمطـاردة واللعـب, يسـتحممّن ينـتفن عانـاتهن ويعبـثن بصـدورهن ذات النهـود الورديـة الصـغيرة كزهـور فردوسـية فـي طـور النمـو, يغِـرن فيمـا بعـد مـن اللائـي يسـبقوهن عمـراً جـراء أثـدائهن الكبيـرة الممشـوقة التـي سـاعدهن الـبعض فـي مرحلـة مـا مـن مراحـل النمـو, الشـباب إلـى المـدن القريبـة فـي محـاولات بائسـة وغيـر رجوليـة لكسـب العـيش, يعـودون فيمـا بعـد لتـدمير مـا اكتسـبوه فـي الخمـر والبغايـا أو العـاهرات بمعنـى خـالي مـن التعفـف, ثـم يرحلـون ليعيـدون الكـرّه مـرة أخـري وهكـذا دواليـك, كبـار السـن أيضـاً لا يختلفـون عـن أبنـائهم

كثيراً, نسوة الحي المتزوجات هن من يقطرّن الخمر أو العرقي ومن يمارسن الدعارة في بيوتهن أو بيت مستورة المعروف عند السكان, هن من يساعدن الفتيات ويمهدن لهُن الطريق لممارسة الدعارة .

ليس هناك شخصاً مثالياً أو نقياً في مدن دمرتها الحروب لتُظهرها بأبشع صورها, الرقص على أنقاض الماضي الأليم ودوي المدافع بمثابة موسيقي ركيكة او لوحة فنية يتجسد فيها الحزن بأقبح صورة خلقتها الآلهة, حيث الحياة لا تتوافق مع معايير المنطق الحيادي بتاتاً, هي لحظة مستقطعة من لحظات كثيرة .

يونس ينبذ فكرة الموت في براح كهذا, حيث أنه لم يفعل شيئاً يستحق على إثره كسب حياة أخري أو شيئاً يكفي لتخليد نفسه هنا في ارض الله الشاسعة إلى حين, قرر أن يصنع من فشله نجاحاً يقنعه على الأقل, أن يرسم لوحة يستحقها, سحق فكرة أن يظل هكذا منتظراً حظه الذي لا يؤمن به, حظ رمى به هنا في لجة الأرض المطوية عنده والممدّدة عند أقوام ما لا يعرفون الله كما يعتقد, حظ هارب من بطن ذبابة أو بعوضة خرجت للتو من أنف نمرود ودخلت في أنف حظه, ارتشف جرعة من السم الذي أرسلته هبة بت الشيخ مع احد أطفال الأرض, جرعة كافية لمساومة شخصاً ما بداخلة ليعقد هدنة, هدنة لا تشبه الهُدن المنتهكة لنبي ما في ماضي قديم, هدنة مع شخصاً ما يسكن فيه اسماه مجازاً فلسطين.

7

صدي الفاجعة

ثمة قسوة تنسجها الاقدار في الخفاء, ثمة احزان تأخذ هيئة بشر, تفاصيل, احداث وافكار ايضاً ، تجاوز عمره الخمسين وهو يعمل حمالاً للبضائع , حمالاً لكل ما يفوق قدرة الإنسان الطبيعي , حمالاً فخوراً بعمله , لدرجة إمتلاكه إسم سوقي , كان يدعوه الجميع بـ "شيال التقيلة" ومع مرور الوقت بدأ جسده بالترهل بدأت الآلام تلازم مفاصله التي عانت كثيراً . إرتمي علي فراشه , سمح لعيناه بأن تُدمع, لعن شيخوخته لعن كل ما مضي وكل ما سيأتي , رأى قوته وهي تنفذ , إعياء شديد يأكل جسده , أصيب بمرض برجوازي عرف في وقت متأخر أنه سرطان , إستجمع ما تبقى من يقين ليُشعر زوجته أم حرير واطفاله الخمس بالطمأنينة وليمسح الحزن من على وجهها المشع دائماً كطفلاً ينام بالقرب من حزاء العيد, هو يعلم بأن الوقت يمضي لكنه يرغب في أن يمضي سريعاً خوفاً على حفنة نقود خبأبها في جيب أم حرير ، كان يقول لاهثاً

- ما بودر القريشات واموت, انا ميت ميت ، خلي بالك من الوليدات يا أم حرير, الله يقدرك عليهم وسامحيني

كانت تبكي, تبكي لفراق متوقع, تبكي وهي تتخيل شكل الحياة دونه ودون راعي لفلذات كبدها , لم يدعها تحظي بوداع يليق بهما كزوجين او ربما آن الاوان للقاء الرب , ذهب حاملاً معه حُلم مستقبل مُشرق لاطفاله , ذهب دون أن يمسح على رؤسهم ككل يوم ودون أن يعبث بخصل أم حرير ، رفضت أن تبكي , رفضت كل اشكال اليأس والحزن او ربما علمت بأن المرحلة تحتاج الصلابة والقوة , تأملت صغارها , الشارع, فكرة التشرد, التسول , لعنت كل شيء .

قررت ان تعمل لكن كالمعتاد ليس هناك مجالاً للفقراء في سوق لا يرحم النساء او يحترمهن , وحدها نظرات الشهوة هي من تسيطر على الشارع, الكل في إنتظار الفرائس حتي رجال الدين والمثقفون والباعة بمختلف مسمياتهم, عملت بائعة شاي في إحدي الارصفة الباردة الارصفة التي تعج بالوحوش المُأنسنة الارصفة المليئة بمستغلي الحاجة , مجتمع جائر في تصنيفة وبالأدق تلك الأعين التي تفرز نظرات الشهوة , مجتمع جعل جملة بائعة شاي مرادفاً لكلمة عاهرة, لكن الظروف لم تترك لها فرصة اخري , لم تترك مجال اخر للعبور دون أن يُخدش حيائها اويُهان شرفها المُصان, لم تسلم من الألسن التي تلعق وتُغازل والأعين التي تطارد مؤخرتها, قررت أن تتخلي عن العمل أكثر من مرة لكن تعود وتسأل نفسها ما البديل ؟

أُناس لم يجمعهم معها سوي كوب قهوة يعبثون بأغلي ما يملكه إبن آدم!

توسدت بعض الهموم وهي ترسم غد جميل ككل أُم, ترسم ببقايا القهوة أباً لا يموت وأملاً تتشبث به, تنسج بخيوط ثوبها الممزق جلباباً للصبر تخبأ فيه جنون الرغبة وعنفوان الشباب, فكرة الهروب لا تبدو منطية خصوصاً الان, الهروب من القدر كمن يهرب من ظله كمن يتسابق مع الموت مبتغياً النجاه .

والناجون الحقيقيون هم الموتي! الناجون هم من وجدوا الرب حيث ذهبوا

جاء الصباح موقظاً في قلب أم حرير رحل عدة, رحل لا تدري هل ستعود منها لتعانق الصبية أم لا, تمنت لو أن الموت يترك اكثر من خيار لتكون هي بديلاً, وضعت إباريق الماء على الجمر الشامت وأخذت تترقب الطريق أخذت تترقب كل شيء حتى تأوهات الارض وهي تستقبل خطاوي المارة حتى الندوب المسننة علي وجوه المتسولين واطفالهم, تطفو البشاشة علي تعابير الألم بداخلهم وهم يصرخون غير مبالين بالمساء او الغد , وتعود مرة اخري على صوت وقور يطلب كوب شاي خالي من السكر, كوب شاي معبق بالمرارة , تأملت وجهه وهي تضع الكوب مع الماء الموضوع مسبقاً,

رجل بلحية بيضاء مشذبة توحي تجاعيده على أنه ستيني يفوح من جسده عطر نسائي أطلقت عليه التقاليد مسبقاً دِلكه, تحرك بداخلها إحساس الفقد, إحساس الحاجة, شيء ما يسيل من بين فخذيها, إحمر وجهها وهي تعود بذاكرتها الى الوراء, تزكرت شيال التقيلة تزكرت صغارها, عادت الى مقعدها الخشبي وهي تحاول قمع شهوتها الجامحة, شبح الخطيئة يلوح في الأفق إستعاذت من شيطان الجسد, قرأت اكثر من آية متنقلة بين السُور بطريقة عشوائية نجحت في حسم ذاك الصراع وصراعات اخري ممتدة .

أم حرير أُنثى قوية للغاية,أُنثى هزمت كل نداءاتها حتي تلك المتعلقة بحاجتها المادية, هزمت شخص ما بداخلها اراد أن ينحرف اراد أن يستسلم للظروف والضغوطات ، ثمة إنتفاضة تفتعلها الرغبة, ثمة شعور سيء ينتابك وانت تقاوم, هي مرحلة حقيقية لمعرفة الايمان الحقيقي ومعرفة الرب, الرب الذي في داخلك ، العصامية تري صغارها وهم يكبرون تراهم وهم يتجاوزون مراحل خطرة حسب تعبيرها وحسب واقع الاطفال الفقراء في مدن الفواجع, لم تلاحظ انها كبُرت أيضاً لم تلاحظ في زحمة الحياة انها تحولت من ام حرير زوجة الرجل العصامي الي أم حرير راعية اليتامي بشكلها الفوضوي, إمرأة قتلت أُنوثتها او ربما الزمان هو من فعل

سألت نفسها بعد أن لمحت المرآة صدفة لا اكثر

- من هذه ؟ من التي سرقت ملامحي او بالأحري ملامح من التي سرقتها ؟

تتوه الاسئلة في الفراغ دون صدي يعيد إليها اسئلتها على الأقل لتأكد لها بأن الامر يخصها وحدها, ففي وقت ما حتي الطبيعة والسماء سيتبرآن منك, سيتحولان الى أليات رقابة فقط

- آه, كم كان الامر قاسياً

عليك أن تأخذ زاوية جيدة لتري هذه الارض, لتري بشاعتها , لتراها عارية تماماً حتى من اخلاقها, سترمق تلك الاسواق المليئة بالنفاق والكذب الموشح بالقسم,ستجد تجار الدين اصحاب اللحى متخذين اماكن تعج بالمؤمنين المزيفين يتنافسون فيما بعد على إقتناء التمائم, تجار الرقيق المقنن والبغايا يتراقصن بأردافهن في محاولات يائسة ولكن دائماً ما يفلحن في إيجاد فريسة سهلة, هناك في زاوية تزدحم بالمقاهي يجلس العاطلون عن العمل بثياب جميلة يشرعون في تناول الشيشة بشراهة وهم يرتبون لجلسة خمر مع فاشلين آخرين من احياء مجاورة, مجموعات صغيرة تدعِي بهتاناً انها صفوة مجتمعاتها, خريجي الجامعات يأخذوا حيزاً في المشهد, أئمة المساجد يلقون خطاباتهم الفضفاضة متناسين واقعهم المُزري, يأخذون من الدين ما يتماشي مع أيدولوجيات الأنظمة الفاشية, رجال الشرطة يمررون الرشاوي تحت المناضد وهم يرتدون الزي المدني ليس هناك من هو بريء, الكل مذنب والكل مُدان, جميعهم مخطئون وأم حرير تكتفي بملأ الاكواب قهوة تارة وشاي تارة اخري,واحايين أخري يطلب الرواد اكواب فارغة لا تدري لماذا, هن هكذا يلبين طلبات الزبائن بكل أريحية ودون أدني إستفسار خوفاً من تدني مستوي دخلهن, خوفاً من أن يعودوا بأيادي فارغة الى بيوتهن, يطالبهن الاطفال فيما بعد بوجبة نظيفة وقطع حلوي تقلدية لا اكثر, بعضهن يمارسن الزنا والدعارة بل يتفرغن لذلك إما مقابل أجر او لإشباع رغبتهن ،

ها هي أم حرير تلعن السوق والفقر ايضاً, تلعن فكرة المكوث فيه لمدة اطول من الذي قضته, فترة مآساوية مليئة بالتحرش والمغازلات التي لا تقل ألماً عنها, لبرهة خيل لها بأنها تضاجع لفظياً كل سكان الارض ، لم تستطيع التحمل او ربما إكتفت ، صرخت بعد أن حطمت اوانيها

- سوقكم دة وحات الله بخش النار ، سوق السجم , سوقاً بلا بركة

قصـدت منزلهـا وهـي تبكـي, إحتضـنت ابناءهـا, تقاسـموا معهـا البكـاء, إفترشـوا مأسـاتهم وفـي جـوفهم اكثـر مـن حلـم, رأت زوجهـا فـي منامهـا, رأتـه يبكـي بحُرقـه وهو يغطي

وجهـه بكفيـه, يسـترق النظـر مـن فتحـات اصـابعه خجـلاً او ربمـا إعتـزازاً عميقـاً لأم حرير والاطفال, إعتزار عن شيء لم يكن بيده

هو بعد أن هدأ قليلاً __ أشتقاكم كثيراً, متي سنلتقي ؟

أتمني أن تأتوا سريعاً

هي مبتسمه ومعانقة الفراغ__ سنأتي لا محالة, مسألة وقت لا أكثر.

8

أنا لستُ بقره

هـذا الصـباح شـهياً عبقـاً ، بنسـيمهُ اللذيـذ المفعـم بالحيـاه ورزاز المطـر النافـذ عبـر كـل شـيء مُشـرع ، صـدراً كـان أم نافـذة ، قلبـاً أو ذاكـرة ، صـباح يُحرضـنا علـى التسـكع خـارج ذواتنـا والتحـرر مـن عبثيـة الزمكـان ، والمُضـيّ قـدماً فـي بحثنـا الـلا نهـائي عنـاّ الـذي نرغـب ، الـذي نعشـق أن نكونـهُ ونعايشـه ، العصـفور لـيس تواقـاً لرؤيـة القفـص الـذي يُصـنع علـى مهـل ، لـيس تواقـاً لهيئتـه النهائية ،

حراً هو ،

حراً بطريقة ما _ مؤقتة كانت أم دائمة

فصوته الذي ترجمه الصياد تمرداً ، ترجمه طفلاً ما (أُحجِيه)

وترجمته فتاة تنتظر حبيبها بالقرب من البحيرة أغنيةً لذيذة

حراً هو

يهتف وحده ، يصرخ وحده ، ضِد من يعرفهُ ، يُغني وحده لمَنْ يعرفهُ

حراً هو

وفـي السـر حرضـتهُ الطبيعـة للتحليـق ، حرضـتهُ للسـفر كـابراهيم أو ربمـا أكثـر شـراهة منـه ، فالحكومـات لا تحكـم أرضـاً وإنـس بـل تحكـم العصـافير أيضـاً ، كـم عصـفور قُتـل وإحتـرق ، السـماء التـي تحلـق العصـافير فيـه يعتليـه الأنتنـوف أيضـاً ، العصـافير ضـحايا وشـهود ومفقـودين كالبشـر تمامـاً حـزم إبـراهيم حقائبـهِ ، ذكرياتـه وجنونـه ، حـزم قصاصـات أوراقـه وذاكـره السـجن وحتـى نـدوب الكلبشـات المسـننه علـى معصـميه النحِيليـَن ، خـرج لتـوه مـن المعتقـل ولا يـدري أيـن يـذهب لكنـه يمضـي فقـط ليُجـرب رغبتـه فـي

المشي ويتعرف على الحرية من منظور الضحية ، هو حر الآن كجميع من في الشارع ، تلك الحرية المشروطة ، فما دُمت صامتاً أنت في مأمن يمشي وهو يضحك ساخراً ، تئن مفاصل جسده ، الشوارع تعج بالمشاه واللصوص والمتسولين تعج برجال الأمن والشرطة ومليشيات متعددة ، وهناك في ركن قصي يتحرك البشر بحرية في الأماكن المخصصة لهم ، يضحك ويمشي بين الزحام مستطرداً فكرة أن يعود إلى السجن عبر بوابة النضال ذاتها مرة أخرى ، ضجيج السوق ينخر رأسه ، كمساري يصيح على مقربة:

- حجر قدو _ حجر قدو ، نفر نفر

واخر هناك يتسابق مع الوقت بصوته الأحرش:

- كُتم ، كُتم مارك ، مارك

دون شعور دخل إبراهيم في تلك الموسيقى الركيكة ، دفع صوته مشاركاً مستمتعاً بعبثية الحياه ، يضحك ساخراً ثم يردد:

- نيفاشا ، نيفاشا بالكبري _ نيفاشا بالردمية _ نيفاشا بالإتفاقية ، نيفاشا نفر

دون أن يقف يصيح ويصرخ ، يلوح بحقيبته بين هتاف وضحك وبكاء ، لبرهة إتهمه كل سكان الفاشر بالجنون بل اقسموا على ذلك وآخر أوجد سبباً يخصه لجنونه ، إذ قال للجميع هذه نهاية من يتعاطى الترامادول أو بصوة سوقية شعبية (التيمو) ، هو متهم وجاني عند الحكومة لأنه يساري متطرف وعند رواد سوق المواشي بالمجنون متعاطي الترامادول ، إبراهيم يصيح متغاضياً عن كل من هم داخل السوق إلى أن وصل الترحيلات ، ترحيلات الخرطوم أو كما يسميها _ المكان الذي لا تحتاج فيه إلى مسرجة أو الأمكنة التي لا تنطفئ فيها الإنارة _ سأل عن تذكرة ، عن مقعد متاخم لنافذة الباص بالأخص ، لكن صاحب المكتب أخبره أن التذاكر نفذت والباصات السفرية كلها محجوزة لكن إن أراد يمكنه السفر بعد ثلاثة أيام

شعر باليأس وعقد حاجبيهِ متسائلا:

- لكن كيف ، عليّ أن أذهب غداً ، لدي أمر هام وعليك أن تجد حلاً

ركل صاحب المكتب شيئاً ما ليُبدي تذمره ثم أضاف :

- مافي أيّ طريقة ، اتصرف أمشي السوق الأسود المهم غور إبراهيم بوِدية مصطنعة _ ولا شماعة ؟

عرف جواب الرجل من تعابير وجهه لأن اللصوص عندما يغضبون تهتز شواربهم ، لعن كل شيء وهو يعود أدراجه باحثاً عن مكان آخر ولكن جميعهم يقولون الأمر نفسه ، السوق الأسود ، بطرق مختلفة بعضهم بود وبعضهم بتذمر ، التجار هكذا أبشع خلق الله ومتخمين بدماء الفقراء ذهب نحو أماكن لا يعرفها ، تأكد من محفظتهِ و حقيبته ، رائحة اللحوم المشوية تكتنز المكان وتُزاحم أنفه ، تستفزه وتستثيره وتحرضه ، جعلته في موضع صعب بين أن يرضخ لنداءات جسده أو أن يستمر ، ربما لأن محفظته الواسعة الفارغة أحالت دون ذلك ، رمى كل شيء خلف ظهره وإبتعد لكي لا يفقد توازنه إيذاء أمعاءه الغليظ وهو يهذى:

- هل هناك رغبة للأكل الآن ، قال سوق اسود قال ، شكلو الجشع مرض معدي ، غنى يا عصفور وارحل

ويضحك مستهتراً ثم يمضي

إبراهيم أو كما يصفه رفقاء نضاله في المدرسة السياسبة ، الذبون الدائم لأنه قلْ ما ينجو من أيّ محاولة إعتقال حتى وإن كان المعتقلين رجلان من أصل أمه فأحدهما إبراهيم وعليهم أن يبحثوا عن هوية الثاني ، كان يقول لهم بكل فخر لحظة خروجه من تغييب مماثل أنه رجلاً محظوظ ، الزنازين منازل للأشباح والمُتعندين ثم يضحك وهو يصرخ:

- أنا شبح أحاصر اشباحاً ، لكنهم يفوقنني عدداً وعتاداً وبطشاً

يفوقـونني جهـلاً ، سـيقتلونني لا محالـة فـي يـوم مـا ، وعلـيهم أن يفعلـوا ذلـك قبـل فـوات الأوان ، وكلمـا قتلـوا رجـلاً يرغـب فـي أن يكـون حـراً أنبتـت الأرض إثنـان ، كلمـا قتلـوا رجـلاً يرغـب فـي أن يتحـرك خـارج إرادة الطغـاه أنجبـت حواء ألفاً.

شـاحنات سـوق المواشـي متكـأه علـى شـمال السـوق ، يتسـارع تجـار البهـائم علـى شـحنها لتعـود إلـى الخرطـوم ، الرعـاة فـي أبهـى صـورهم معتمـرين عمامـات بيضـاء ونعـل محلـي جميـل مـدثرين بسـديرياتهم وعِصـيهم الملونـة ، شـخص مـا يُحصـي الأبقـار وهـي تعبـر بعمليـة إحصـائية دقيقـة حتـى وصـل إلـى الـرقم سـتة وخمسـين ، تعجـب إبـراهيم فكيـف لبقـرة أن تجـد موطـأ قـدم داخـل ناقلـة وتقصـد الخرطـوم وانـا لا ، جلـس يترقـب الأمـر حتـى أنهـى الرجـل عمليـة الشحن ثم قفذ داخل الناقلة وأخذ يضحك ساخراً ثم أردف:

- سبعة وخمسين ، قال سوق اسود قال

أمـره الرجـل بـأن يترجـل مـن الناقلـة وهـو يشـير بعصـاه مهـدداً ، لكـن إبـراهيم تجاهل الأمر وصرخ:

- انا لست بقره ، لكنني كذلك إذا كان في الأمر خرطوم نؤخذ إليه.

بعـد شـد وجـذب دامـا طـويلاً ، كـان الراعـي يشـك فـي أن هـذا الوجـه مألوفـاً ، هذا الرجل إلتقيتهُ في مكان ما ، لكن أين ؟

نزع عمامته وأخذ يفكر ، ثم صرخ :

- انت إبراهيم قرقاش

إبراهيم بعد أن إعتلت تفاصيل وجهه الدهشة :

- نعم انا ابراهيم لكن انت منو ؟
- انا ود النقعة يا صحبي ما عرفتني
- يا سلام ياخ كيف اخبارك ، وعامل كده في نفسك ليه

- ده قصة طويلة و ما مهمة ، المهم انا ماشي الخرطوم عندي امتحانات بعد اسبوعين

نفضا ذاكرتيهما ، تعرفا على بعضهما وإستدعا ما يمكن إستدعاءه من ذاكرة المرحلة الابتدائية اللذيذة ، ود النقعة المشاكس يضحك بنهم وهو يحدق في وجه صديقه الذي إختلف كثيراً ، حيث أعطى مطلق الحرية لنمو شعره ، وأصبح حديثه ركيكاً غير متناسق ومكتظ بالمصطلحات ، تحركت الناقلة وغابت في غياهب الطريق الإسفلتي الطويل وإبراهيم على مِتنها وقد أحال نفسه إلى بقرة من أجل الذهاب إلى الخرطوم ، تناسى تلك المفارقة متكأ على كومة علف ، غالبه النعاس فنام ملء رهقه كعصفور تعب ، العصافير آية من آيات الرب وتوازن للكوكبنا الضخم ، ربما هي فقط ما تجعل الأرض صالحة للحياه في وطن يعتبر التحليق تمرداً الخرطوم جنة الأوهام كما قال الرفيق طه البدري ، عليك أن تدخلها خلسة وتخرج منها خلسة أيضاً ، لأن منظومة الحياة فيها رافضة للجهر ومنصاعة للتكتم ، ربما ستتغير وربما لا فالأمر معقد بدقة من جهة ما ، إستيقظ إبراهيم فمزمار الناقلة كان كفيلاً بأن يوقظه ، ها هو في قبضة المدينة التي لا يستمتع بالتسكع في ازقتها والإنخراط في تفاصيلها ، ها هو متاح لشقائها وعبثيتها المرهقتين ، تحسس محفظته وعنقه فكل شيء وارد في هذه الأرض إن كنت راكباً أو ماشياً إن كنت مع حفنة بقر أو مع بضعة أشخاص ، فجميعنا متهمين وسُراق وفساق ، تحسس بأنفه الإستقرائيّ نوع الرياح مستكشفاً حالة المدينة ، كعادته يظن أنه يشُم رائحة الفتنة من منأى والجو الهاديء مصيدة لا تُخفي شيئاً جميلاً ، إيماناً منه بأن أيّ أمر لا يحدث صدفة. ضحك بإستهزاء متناهي ثم ترجل مودعاً ود النقعة وشاكراً لخدمته ، اخد يزرع شارع السوق الشعبي يدندن تارة ويسخر من كل الذي حوله تارة أخرى ، يشتم ويلعن ويضحك ويمضي ، لا يستحي من نظرات المارة ولا يستنكر إنتباههم اللا واعي لسلوكه الجنوني كما يزعم ، يمضي بسرعة ورشاقة نحو ما يفترض أن يكون مصنع أديب للبلاستيك ، مصنع

يتبع للرأس مالية القبطية ذو عمالة إثنية ضيقة لا يتماشى مع مبدأه أبداً لكن لا مناص فلا بُد للشخص أن يقدم بعض التنازلات خصوصاً الآن ، حاجته للمصروف إكثر إلحاحاً من مبدأه وعندما تحتاج لما يسد رمقك عليك أن تتجنب المنطق والمبدأ ، هو أمر منافي لكنه الواقع ، ثم يحدث نفسه هاذياً:

- قال سوق أسود قال ، انا ما انا ، وهم ما هم ، لكن تقول شنو الوحش الجوايّ طغى على ابراهيم قرقاش الإنسان

ثم يضحك مستهتراً ويمضي

إتصل بصديقه العزيز الذي يعمل بذات المصنع ربما لرغبته في الوساطة لصِلة قرابة باهتة بينه وبين رئيس العمال بل جميع العمال تربطهم صلِة قرابة ما مع رئيس العمال ، صمت صديقه لبرهة ثم أردف متهرباً:

- والله بحاول ياخ ، الأيام دي مافي شغل ، كده برجع ليك بتلفون بعد شوية

من خلال نبرة صوته عرف إبراهيم أن صديقه هيأ له الرفض بتمهيد يألفه ، هي إشارة منه لعدم وجود فرصة لكن لا بأس بالإنتظار ، هم هكذا دائماً لا يتيحون الفرص لغيرهم لأن الأمر مقرون بقضايا عديدة لا يسعني الخوض في تفاصيلها ، ربما سيشملني إستثناء ما ، سأنتظر

في معترك تساؤلاته تلك ، سمع شابان يتحدثان بالقرب منه عن مصنع الزيت ، دقق وتلصص حتى علم أن رفيق لهما لم يأتي إلى العمل لأنه مريض وعليهما زيارته ، هب من مكانه وسلم عليهما بوُد خبأ خلفه حاجته الملحة ، قال لهما لقد سمعتكما تتحدثان عن صديق لكما غاب عن العمل بسبب المرض ، أحدهما بإستغراب :

- نعم
- ممكن أسد محلو لغاية ما يتحسن

- لماذا؟
- لأنني احتاج الى عمل ، لفترة اسبوعين فقط ، اخوكم طالب في جامعة النيلين
- تبادل الشبان نظرات الشفقة ثم أضاف أحدهم بعد أن ربتْ على كتف ابراهيم:
- ما مشكلة ، لكن اسبوعين بس تمام
- ما بزيدها ولا يوم
- تمام ، مصطفى كان شغال محل تعبئة الأُمباس ووورديتو الساعة ستة ، يعني بعد نص ساعة.

شكرهما ورحل إلى حيث المصنع ، وبعين ثاقبة تفحص هيئات العمال ، قرأ تعابير وجوههم البائسة وتفاصيلها ، منهم من لفظتهم الحياة إلى هنا بقسوة ومقت ومنهم من هم طلاب في جامعات مختلفة وكليات شتى ومنهم أيضاً من يُعيلون أسرهم الفقيرة العفيفة ، هنا كلاً بمصيبته ومبتغاه ، كلاً له جرحه وصديده وأنينه وبكاءه ، بصمت مُدقع يمارسون طقوس حزنهم المستفيض ويحولونه إلى ضحك هستيري متذبذب يفضحهم عند نهايته الدامعة ، دخل إبراهيم هناك وتآلف وتودد وعاشر أصدقاءه الجدد الذي أسماهم فيما بعد " البرمائيين" ، يعيشون هكذا إلى ما شاء الله كعصافير لا ترتدي اجنحتها ، أو مكسوريّ الجناح يقفزون (دِر اللوم) قفزة لا تعتبر محاولة للطيران لكن عبثاً يقفزون أحراراً إستعبدتهم الأمكنة والجوع

أنقياء لوثهم البؤس

اتقياء لنعتهم الآلهة

بعد اسبوعين وبالأدق عندما أنهى ورديته الأخيرة في مصنع الزيت ، حزم حقيبته مرة أخرى وتحسس محفظته كالعادة مغادراً دون أن يُخبر أصدقاءه

البرمـائيين ، هـو هكـذا يخـرج خلسـة ويـدخل خلسـة ، حيـث لا يسـتطيع أحـد العثور إليه عدا رجال الأمن غادر مدندناً:

- من منفى لمنفى يا يمه

من منفى لقبر وسيع يا يمه

قال سوق اسود قال

وبـين دندناتـه أخـذ يفكـر ، إلـى أيـن يـا قرقـاش ، إلـى أيـن ؟ ثـم يضـحك بإستهزاء ويمضي .

تمـدد علـى سـرير داخـل بيـت العزابـة فـي أقصـى جنـوب الحـزام ، أشـعل لفافـة تبـغ متفحصـاً هاتفـه المحمـول تزامنـاً مـع نـزول رسـاله نصـية مـن زميلـه كركـاب فحواهـا بـأن الإمتحانـات تـم تأجيلهـا إلـى حـين إشـعار آخـر ، نفـث الـدخان بتلذذ ثم أردف:

- نيفاشـا ، نيفاشـا بـالكبري _ نيفاشـا بالردميـة _ نيفاشـا بالإتفاقيـة ، نيفاشا نفر

9

نشوة الهلاك

في مرحلة ما سينفذ حظك , ستشتهي أن تعتق صرخة تتقيأ فيها كل ما يعتصرك من ألم وفشل وحزن , تتمني لو أنك كنت مجنون بما يكفي للتحليق في ذاك الفضاء الذي رسمته عند طفولتك وترعرع معك شيئاً فشيء حلماً أوشك أن يصبح مستحيلاً , تحملق في الأفق البعيد باحثاً عن شيء يخصك عن أملاً قد تجود به السماء أو شعاع ينتشلك من كومة القمامة العالق فيها ، وما أسوء أن تكتشف أنك لم تكن جريئاً بما يكفي لتعانق أشيائك بعيداً عن الأرض وتكتفي بحياكة مبررات لم تُقنع حتى ذاك الطفل الذي تشكل على هيئة ضمير يتحرك داخلك, تبدو مثير للشفقة وأنت تنتظر لحظات مدهشة دون أن تؤمن أسباب انتظارها فالأحلام المستحيلة تحتاج شخصاً مذهل وإلا يجب أن تسأل نفسك :

- لماذا هو بالذات ؟

الوقت يمضي دون أن يحرك باولو ساكناً , هو هنا في زحمة الذكريات يبحث عن شيء عرف فيما بعد أنه هو , هو الذي في المهد وعلي أمواج الصبا وعجلة الزمن حاملاً معه حفنة أحلام خبأها داخل حقيبته المدرسية ووصايا والدته ميري وبالأدق تلك التي كانت ترددها عقب كل قبلة وداع (لا تستسلم يا بني) وكأنها تنبأت بحوجته لوصايا مشابهة في مستقبل قد لا تكون فيه , وكأنها سمعت وقع أقدام الخيبات وهي تحاصر طفلها آجلاً , استعاذ باولو من شيطان الوراء الذي يوسوس في صدر الذاكرة وارتمى على فراشه عسي أن ترضخ ملائكة الكون لرغبته في النوم ، أتى الفجر ، خرجت أصناف الشموس من أفاقها ، حتى تلك التي لا ترغب في إضاءة المنافي الموحشة ، حتى تلك التي لا تشتهي السطوع الأرض تدور غير آبهة بمن سيسقط ، علماء الفلك مشغولون باستنباط نظرية تمنع انشقاق

القمر ، منهمكون حد الموت لإيجاد طريقة ما تخلص باولو والبشرية أو بمعنى أدق ما تبقى منهما ، نواقيس الهلاك الصدئة المركونة في أقصى الجبال المسكونة أوشكت أن تُطرق ، السحرة و المبشرين والمنجمين يتنبئون بنذير شؤم يتربص بأبناء آدم ، حتى عزازيل إله الشياطين صنع مركباً صغيراً يقيه من غضب الطبيعة ومنطق الطوفان ، الطبيعة التي لا تجيد سوى العنف زامون وزير الملك يأمر الخيال بطرق الطبول يأمره بان يخبر سكان المدينة المباركة عن اختلال في توازن الكوكب عن حرب لا تصد سوى بالتعويذات والابتهالات.

شمشوم الكاهن ينصح الخدم برمي الجواري في الماء خوفاً من لعنة الدنس وغسل الاميرات بماء الورد المسبعة في بحيرة الواق الواق التي تنبع من جزيرة بارشى ، القساوسة وأئمة المساجد يلعنون الحرب ويصرخون في مواقيت الصلاة ويستنجدون برباً عرفوا فيما بعد انه رب كليهما .

هناك في كهفه الذي لا يطل علي شيء سوى أمكنة لم يشتهي أن يراها , أمكنة لم تتحلي بالأنوثة والرحيق ممدداً علي أملاً قديم في قلب المنافي والمدن ملتحفاً بعض القصائد والورق وثوب والدته , أول ثوباً ارتدته عندما أمطرت السماء لعنات الحروب والفتنة على الأرض , أخر قطعة قطنية توشحت به عند الغروب والآن ها هو قابعاً تحت رأسه ملطخاً بالدماء كثوب يوسف , ها هو بجانبه تماماً يلامس الوجدان وكأنه كتفيها .

أيقظه الهتاف أيقظه كي يعود إلى الوطن , حملق في الفراغ جيداً تنصت على ذاك الصخب المدوي على ذاك الضجيج المتزن _ تشابهت الأصوات , أصوات السجناء خلف القضبان أصوات الشرفاء في عمق الزنازين , أصوات الفقراء , العمال , المهنيين , أصحاب المتاجر الصغيرة والكبيرة حتى صوت البندقية كان واضحاً بل أضخم الأصوات من حين إلي أخر , أيقن أن أصدقاءه أصدروا ضجيجاً أن البراكين الهادئة تمردت على ذاك السكون أن الشيطان الآن يشعر بالدوار , أيقن أن الوطن خرج إلى الشارع

, خرج كما ينبغي , الأرض مكتظة بالجيوش والثوار والمرتزقة مكتظة بكل الأضداد حتى تلك المخلوقة في معمل أيدولوجي يملكه عزازيل إله الشياطين , سميت فيما بعد الدعم السريع , دعم ساهمت الطبيعة العنيفة في إنتاجه دعم ساعدته الظروف والسماء لأن يكون هناك في قمة الهرم بكل خُبث ، وباولو جالس هناك على هامش الوطن يرمق ساحة الفداء يري الموت مرتدياً بدلته العسكرية ويتربص بالوطن , يري الشهداء وهم يعانقون أفواه البنادق المأجورة ويهتفون سلمية , سلمية وما أسوء من أن يخرج زامون وزير الملك مساءً خلف عدسة ضبابية يحمل أنباء تُخجل حتى الهدهد من حملها يُدلي بها بكل صفاقة أمام الملأ تزامناً مع انشغال شمشوم الكاهن مع بعض الشيوخ بنسج ديناً جديداً يُبيح سفك الدماء ويقدم الوطن قرباناً لأصحاب الياقات البيضاء وباولو يتذكر كل شيء , يتذكر تلك الكتائب المسلحة وهي تحاصر قريته النائية خلف غابات السنط والمهوقني , تذكر أول ليلة له في مدينة استنشق فيها أنفاس الوصول وذاك الصباح المبتور من صباحات عديدة عندما جلس الأطفال على شاطئ النيل آخذين الشرق قِبلة وهم يجمعون الرمل ليرسموا وطناً جميلاً , ليرسموا ترنق تاورا أخري من الرماد أو بالأدق العدم إلا هو كان يحاول أن يصنع والدته ميري , أن يصنع أُنثي تخصه وحده وفي كل مرة يكتشف أنه يصنع بندقية يتفاجأ بأنه يصنع حرباً جديداً مضاداً

تأكد أخيراً بأن هناك قاتل ما يسكن داخله , قاتل أو ربما ثائر لجأ إلى الكفاح المسلح ووالدته ميري تلوح له من مكان ما في الجنة وهي ترتدي ذي ابيض , حدثته بعد أن صفقت بجناحيها قائلة:

- إياك يا بني , إياك أن تقتل أحداً إلا على حق

قاطعها متسائلاً :

- أليس الوطن حق يا أُمي ؟

- أجل

بـدأ شـبح المـوت يلعـب فـي رأسـه , بـدت الحيـاة قصـيرة جـداً فـي نظـره , الأشـجار أخـذت تتمايـل وكأنهـا تومـأ لبـاولو , ربمـا ثنـاء علـى مـا يـدور فـي عقلـه وربمـا الريـاح لـم تتـرك لهـا مجـالاً للـرفض , فكـرة قتـل احـدهم مـن اجـل أيدولوجية معينة لم تقنعه أو لم تنضج بعد لتوقف مساومات الدواخل

تأوه ثم أضاف:

- مـا أبشـع أن تكـون إنسـان فـي مجتمـع الغـاب وأمـر صـعب جـداً أن تتحـول إلـى قاتـل أيضـاً , لـيس هنـاك أمـراً أكثـر بشـاعة عنـد الكبـر مـن تيقنـك بـأن الأشـياء مـا عـادت تُحـل بالبكـاء , بـأن هنـاك أشـياء مخيفـة أكثـر مـن مـواء القطـط وشـكل المجـانين وهـم يجوبـون الشـوارع وأن جارنـا الشـرطي يملـك أكثـر مـن ذي مـدني والغريـب أن البندقيـة لا تصـدر الصـوت الـذي كنـا نحاكيـه , هـا هـي أشـباح البنـادق ذاتهـا تقـتحم منازلنـا المنصـوبة فـي مدينـة لـم تشـاء السـماء أن يكـون لهـا اسـماً جميلاً , مدينـة انزلقـت هكـذا مـن بـين السـجلات وأصـبحنا نحـن فقـط دلـيلاً علـى وجودهـا , مدينـة قسـمتها الجاهليـة إلـى أن تلاشـت تمامـاً ملامـح الحـزن أبشـع مـن أنـين الكلمـة وأبلـغ مـن لغـات الصـم , بـل اصـدق مـن أيّ تعبيـر يقفـز إلـى ذهنـك , لبرهـة أراد بـاولو أن يكـون شـاعر أن يتـرك تلـك البندقيـة أو يسـتبدلها بقلـم , لكـن تغييـر هـذا العـالم بالمـداد ومشـاركة الـورق فـي حربـاً جـاهلي جديـد لا يبـدو منطقيـاً بالنسـبة لـه أو ربما الرغبة في الانتقام جعلت كل الأفكار الإصلاحية مجرة أوهام

الخامسة مساءً ...

ترتـدي السـماء ثوبـاً جديـداً يشـبه ثـوب ميـري, ثوبـاً حاكتـه تفاصـيل المكـان وتقاليـد الأسـلاف , تبـدو السـماء جميلـة فـي ذاك الثـوب أو ربمـا يكمـن الجمـال فـي ملامـح ميـري الـذي اتخذتـه , خطـوات العـودة جليـة علـى شـوارع المدينـة

المباركة وتنهيدات الوصول تملأ آفاقها والشوارع تحاول أن تهرب من وطأة الأقدام تماماً كباولو المعتوه , المنجمون ينبذون هذا الوقت بالذات وينصحون بتطويق الأطفال بتعويذات صنعوها لكي لا تتلبسهم أرواح الشياطين , اخرج باولو بندقيته الطينية من حقيبة عمرها خمسة عشر عام تقريباً مرر أنامله ببطء تحسس جرحاً لم يندمل , تخيل ميري جالسة قبالته وهي تخفي سيلاً من الدموع , تخيلها تسحب مشط الرصاص وهي تقول :

- الحرب ليس حلاً يا بني ، الحرب ستجعل أكثر من باولو دون ميري , أكثر من ترنق تاورا محاطة بالرماد والجثث , الأرض لا تسع لضحايا جدد , الأرض لا تشتهي دماء شابة تروي ظمأها يا بني.

اصدر باولو صرخة مدوية , صرخة اختصر فيها كل آلامه , صرخة اختزل فيها صرخات عديدة فات أوانها _ جلس على الأريكة واضعاً أمامه إناء فارغ وضع عليها بندقيته الطينية ثم سكب عليها بعض المياه لتتحلل , لكي تصبح مجرة لُعبة ما من عمره المطوي , أشعل لفافة تبغ واخذ يتأمل ماضيه في ذاك الإناء , يتأمل كراهيته لهذا العالم وهي تأخذ شكل مغاير , يتأمل ذوبان البندقية رويداً رويداً إلى حين التلاشي

صنع بذاك الطين شيئاً عرف فيما بعد أنه قلم

قال بعد أن حمل قلمه الطيني :

- عندما تحارب جاهلاً لا يكفي أن تحمل قلم فقط , لكن ميري تكره الدماء وأنا اكره أن تُقتل ميري أخري ، آه, ثمة شيء ما يزعزع السلام الذي بداخلي, يعبث بالسكون ويختبأ بين ثنايا الفؤاد حافياً, على شخص ما إقناعي بأن القلم يمكنه الصمود في وجه المدافع والبنادق إذا التقيا وجهاً لوجه, يمكنه أن يمنع تلك البندقية من قتل ميري أخرى في الجوار أو حتى التي هناك في رحم احدهم,

10

يوم في كـوبا

هافانـا عاصـمة النضـال وسـماء العشـق الملتهبـة بجينـات اكثـر مـن جيفـارا , بقايـا الثـورة متجليـة حتـي علـي الارصـفة وإبتسـامات المـارة ,مبعثـرة الـي حـد كبيـر يجعلنـا نمتثـل امـام تـاريخ جميـل وحافـل وملامـح وطـن فخـم يخفـي خلـف أريحيتـه مأسـاة ومشـاعر متناقضـة يخفـي ظـلام دامـس إبتلـع أكثـر مـن بطـل , ومسـتقبل يشـع وفـق مـيلاد أزمنـة وارفـة وبراقـة منتقـاة مـن إكسـير الـوعي المتـدفق ، نسـجت السـماوات لقـاء مـع أنثيـات المكـان او بـالأحري نصـبت فخـاً مـا عنـدما شـاءت الاقـدار أن يلتقـي فهـد بمـلاك تُـدعي نـرجس , أنثـي أطلـت مـن الشـرق تمامـاً , أنثـي سـاهمت كيميائيـة الأرض ومنطـق الطبيعـة فـي بلورتهـا , بعـد نظـرات لا تبـدو هشـة علـي الأرجـح رمـت عليـه التحيـة وهـي تمـرر عيناهـا علـي تقاسـيم وجهـه الافريقـي وملامـح ربمـا صـنفتها للشـمال الأسـمر, رد فهـد التحيـة مسـتنداً علـي إبتسـامتها بلغـة إنجليزيـة تـوحي للمسـتمع بعـض التكلـف , مـدّ يمنـاه لمصـافحتها وفـق تقاليـد الارض التـي لفظته مخبأً أسئلة فضولية منها :

- مـاذا لـو كـان الامـر عناقـاً ؟ لـم تفكـر نـرجس مـرتين فـي قـرار مـا إذا كانـت ستصـافحه أم لا, جلسـا علـي طاولـة بـالقرب منهمـا وسـط دهشـة تملكـت فهـد وتسـاؤلات قفـزت الـي السـطح ، هـل الجميـع مـألوفين فـي هافانـا أم أن للغربـاء مكانـة خاصـة فـي وجـدان كوبـا ؟ هـل هـي الرغبـة في معرفة المختلف ؟

لـم تدعـه يمضـي بعمـق حيـال مخيلتـه ليسـتنبط شـيئاً مفيـداً, أو ربمـا الربكـة أحالت دون تركيزه , همست في قلب الفراغ قائلة :

- هـل إلتقينـا مـن قبـل ؟ هنـاك شـيء مـألوف يجزبنـي نحـوك ربمـا شـيئاً إعتيادي او أمراً مماثل

قال بعد أن إستجمع قواه , :

- لا لا أعتقــد ذلــك – هــذة زيــارتي الاولــي لكوبــا وهنــاك شــيء اخــر, الجمال الذي أبصره الآن لا يمكن أن يُنسي لو أبصرته في السابق

إبتسمت ثم أردفت:

- هل أعتبر هذه مجاملة أم محاولة لنصب فخ ؟

هو بعد حيرة:

- كلاهمــا ، لكــن لا أدري يــا ســيدتي لمــاذا يتملكنــي إحســاس أننــا مــن جغرافيـا واحـدة , إحسـاس قـوي جـداً بـأن إمـرأة نوبيـة خلـف هـذا الـزي الكـوبي , إمـرأة حالفهـا الحـظ لكـي لا تتلـوث ذاكرتهـا مـن قِبـل أمكنـة يَفترض أن تكون فيها

قالت وعلامات الذهول تبدو جلية على وجهها :

- واو يـا لـك مـن رجـل ذكـي , هـل انـت عـراف لتبتـدع كـل هـذة التكهنـات , لتبتـدع اكثـر مـن اسـطورة فـي اول لقـاء مـع شخصـية لـم تراهـا مـن قبـل او ربما من رداءة المدينة المختزلة في ملامحك .

إبتسم ساخراً ثم اضاف:

- هل يعني ذلك أني محق ؟
- ربما

إتكـأت علـي الكرسـي موقظـة فـي مخيلتهـا بعـض التكهنـات, تكهنـات تبهـر فهـد او ربمـا لتصـدق أن الامـر كـان صـدفة وكـل مـا تـذوقت طعـم حديثـة كـان التوهان أعمق قاطعها مضيفاً :

- لا تفكري كثيراً , سأذهب الأن وربما نلتقي مجدداً

هي بصوت حاد كمن يشتهي أن لا تبرح الصدف زمانها ومكانها :

- متي وأين ؟

هو بعد أن إستدار :

- الاقدار ستتكفل بذلك

راقبتـه وهـو يمضـي الـى أن تلاشـي تمامـاً, تركهـا هكـذا فـي غمـوض متشـبثة بلقـاء محتمـل تمنـت أن يجـود بـه الوقـت سـريعاً, كمـا لـو أنـه أيقـظ فيهـا رغبـة الجنـون ورحـل, كمـا لـو أنهـا عشـقت جنـيّ هـارب مـن بحيـرة مـا فـي ادغـال افريقيـا فـي الثـاني مـن نـوفمبر إسـتيقظت نـرجس لتـري كوبـا بصـباحاً مختلـف, حيـث الغيـوم تتراشـق وتتلبـد والنسـيم يطـرق النوافـذ برقـة فـالورود اول مـن تشـعر بتقلبـات المنـاخ وتحولاتـه , لاول مـرة تشـعر نـرجس بالحُـب , لاول مـرة يـدق الزمـان حصـون أنوثتهـا المخبـأة , وقفـت أمـام المـرآة لتعيـد ترتيـب خصـلات شـعرها التـي بعثرتهـا الوسـائد ولتتـذكر ذاك الغريـب الـذي سـرق قلبهـا عنـد اول لقـاء , تبتسـم تـارة وتـارة اخـري تنكـر حبهـا وتعتبـره لقـاء عـابر لتجمـع مـا تبقـي مـن كبريـاء ومـع مـرور الوقـت باتـت تكـره المـرآة , المـرآة التـي تُظهـر فهـد إنعكاسـاً لهـا المـرآة التـي تربكهـا وتُعيـدها مهزومـة عنـد كـل نـزال ، قـررت أن تكـون واقعيـة بعـض الشـيء فهـي الان مغرمـة بـرجلاً غريـب تعـرف عليهـا بعمـق ووضـوح لكـن مـا هـي الميـزة فـي الغربـاء ؟ , ثمـة كاريزمـا مرعبـة خلـف وقـارهم وكـأنهم يخفـون جـزر مرجانيـة فـي دواخلهـم ليتركـوا بصـمات هنـا وهنـاك تـأجج فكرة رحيلهم والحنين

ولكن يا تري هل كل الغرباء هكذا ؟

لم تمضي كثيراً في نوبة تساؤلاتها , بدأت تبحث عنه في شوارع هافانا وصدي صوته يتردد علي معظم حواسها , بحثت عنه في كل وجه افريقي وكل حي قد تطئه ساقان سمراوان لكن دون جدوي , بحثت مراراً وفي كل مرة تعود بأكثر من خفين

قالت يائسة :

- لهذا أكره الغرباء

عادت الى منزلها , أعدت قهوتها وأخذت تسترق النظر الى المرآة , أخذت تراقبها وكأنها تتهمها بإخفاء ذاك الغريب بين حوافها ، تذكرت شيء ما , إندلقت القهوة , تذكرت سؤاله الاخير, أري أنثي نوبية في زي كوبي ــ هل انت من هناك, يا إلهي ربما هو ايضاً من هناك ، باتت مشوشة حد الهذيان , باتت تملأ الآفاق ضجيجاً لا يخضع للتصنيف, سألت نفسها تُري في أيّ دولة يقطن النساء النوبيات ، في أيّ بقعة من هذة الارض اللعينة

صوت ما يخرج من بين حواف المرآة ــ إنها جبال النوبة يا نرجس ، صدي الصوت في الغرفة ــ جبال النوبة جبال النوبة جبال النوبة ، نرجس مستديرة نحو مصدر الصوت صارخة ــ اخرج من مرآتي , اخرج من مرآتي ، أخذت تضرب المرآة وهي تصيح اخرج من مرآتي ايها الغريب اخرج من مرآتي ايها الغريب ، الى أن تهشمت المرآة وأصبحت قطع صغيرة متخذة اشكال فوضوية , حب جنوني تملك نرجس واحاسيس غريبة تجاه غريب قلب حياتها رأساً على عقب , ثمة رعب مهول في الحب ايضاً ثمة وجود ظاغٍ له قبل أن تأمر السماء شبح البحر بأن يشق طريقة على الارض ليفرض نفسة حدثاً طبيعياً , قبل أن تنضج فكرة الثورة في مخيلة البراكين , الحب تماماً كما خلقه الرب ليضاهي الشر الذي في قلب الإنسان, مجهولاً كعادته لا يملك وصفاً دقيقاً او ليست هناك دقة تصفه وتحدد ماهيته,

عبارة عن أنصاف تعاريف _ تخاريف واشياء اخري تراودنا كما لا ينبغي , ربما حاجة الإنسان الملحة للهرب الى قلب احدهم او ربما حاجة الطبيعة الى التوازن ، أيقنت نرجس وبشكل منطقي أن الوصول الى فارس احلامها امراً مستحيلاً لكن قلبها يرفض المثول ومشاعرها تناشدها بأن معجزة ما ستحدث , معجزة ما ستعيد ذاك الغريب إليها _ طغي شوقها على كبريائها فحاولت جمع اجزاء المرآة المتشظية عسي أن تلتقي به او لتواسي نفسها بذاك الصوت الوهمي الذي يخرج من حوافها , صوتاً يُبقي آمالها على قيد الحياة.

يا إلهي

مجرة لقاء لم يتم الترتيب له يُحدث فوارق جمة في حياة احدهم , اصبحت كوبا الجزء المأساوي من الارض في حياة نرجس , اصبحت هافانا جحيم ملتهب يأكل منها شيئاً فشيء , دخلت في نوبة بكاء عالية زرفت فيها كل دموعها حتي تلك المتعلقة بأحداث مستقبلية في طيات الغياب معانقة بقايا المرآة التي بدت قاسية للغاية , بدت وكأنها لا تأبه لمشاعرها وكأنها تعاقب نرجس على تهشيمها , خدشتها اكثر من مرة لكن الامر يهون عندما يتعلق بالحب ، الحب أشبه بالحرية , كلاهما يحتاجان الى نضال و الى تنازلات , يحتاجان الى أسمي انواع الرغبة وأجلْ تداعيات الثورة , كلاهما لا يلوحان في الأفق دون ضحايا لا يرتقيان الى القداسة واليقين إلا بتقديم القرابين ، نرجس تداوم عند طبيب نفسي الأن , تخضع الى جلسات تراها غريبة , لم تعتقد أن هناك شيء ما سيبعث فيها الجنون ، لم تتوقع بأن الحب ايضاً يحمل جينات الحزن وينصب أفخم انواع العزاء صرخت مرة اخري مضيفة :

- لهذا أكره الغرباء

11

أزرار البيانو

منذ أن كُنت صغيراً تعتصرني اسئلة كثيرة , مثلاً

- كم اصبع أو زِر يملكه البيانو ؟ وهل تصدر الأزرار عدة اصوات أم انها كالبندقية تماماً تصدر صوتاً واحداً جهوراً مخيفاً , ولها زر واحد يُدعي زناد ، وهل اصابعها ما زالت كما هي أم أن الحرب بترت بعضاً منها تماماً كالايادي الملوحة دون انامل .

سأكون كاذباً إن قلت لكم أني جلست خلف آلة يخرج من جوفها الموسيقي , خلف جهاز أتحكم في إيقاعاته ونوتاته , لكن ثمة غطاء لبيانو قديم في ذاكرتي , ثمة أزرار مبعثرة داخلي , لا أعلم هل هي اجزاء من الفرح تحاول أن تتشكل داخل هذا الجسد المنهك أم أن الرغبة تأخذ هيأة ورم خبيث عبر الخلايا ، جاءني صوت لا أوقن مصدره يقول :

- إنه سرطان الرغبة

اكثر من سيمفونية يدوزنها الليل العتي , اكثر من طفل يلهو في فؤادي , ربما كل اطفال الوطن سكنوا فؤادي بكل ما يحملون من ألم وحياء , براءة وحزن .فالقسوة احياناً تأتي علي هيأة منطق علي ئهيأة رصاصة .

بعد خمسة وعشرون عاماً , ها هو البيانو ذاته جالساً امام أُنثي سمراء بوجهها الدائري وثوبها الابيض , متكأة علي فخامة المكان تداعب انامل البيانو وكأنها تسرقني أزراري , فهي تلامس الأزرار التي في ذاكرتي بالضبط ,الاسود المتآكل .الابيض المكسور, والصدفة أن يكون ذات الغطاء او هكذا خيل لي .

وضعتُني بالقرب منها في طاولة لم تخصص للعشاق والاسر , كرسي واحد ومنفضة وكوب قهوة لم يفلح النادل في أخذه قبل جلوسي , كل من في المقهي مشغولين بمن يجلسون قبالتهم العشاق , الاصدقاء , وهناك من يمسك بمجلة , إلا أنا .ربما أنا فقط من يفتقد هذه الموسيقي وحدي من يجزبه الأنين المستمر والإيقاع الفريد , تأخذني الي مدينة نيالا وبالأدق مباني الأسفلت الإنجليزية المحازية للسكة حديد حيث تركت قلبي يدق ابواب العدم ويصنع من ضجيج المكان لحناً سرمدي يضاهي عنفوان الشباب وأرق القضيب من ثقل القطار , وحدي من قسمتة براعة تلك الأُنثي الي حاضر وماضي ومستقبل

ربما لغة الموسيقي اكبر من أن تضعنا دفعة واحدة في رحلة عبرالزمن بحقائب فارغة إلا من الحب , واصغر من أن تداوي شقوق الزاكرة التي لم تشاء السماء ان تهذي قط , الان ثمة أُنثي تجمعني مجدداً في لوحة موسيقية وفي مكان ما مسحت احداثه معالم جغرافيته , أُنثي تلملم شتاتي من ارصفة المواعيد , المدائن , البحور , وتلك العصية الذاكرة

لم أتذكر في ذاك الوقت سوي جارتي حجازية التي قاسمتني الأمل وذودتني القوة في انتظار الزمان ليفسر لي سر أزرار البيانو , حجازية التي تتقمص احياناً دور محبوبتي وتسرقني قبلة كل مساء وكنت امازحها, ماذا تركتي لـ فاتن , حجازية التي تنبأت بسيول الحرب وهي تختمر حتي أخذت شكل حصان وبندقية وبعض الخرافات والبدع

حجازية زوجة الشهيد عبدالله الفنجري

حجازية تجلس علي كرسيها الخشبي وهي تقص للاطفال قصة علي بابا واللصوص, والاطفال في غاية الدهشة والإستمتاع وأنا أقهقه بألم هناك خلف الجدار متزكراً مقولة صديق لي يُدعي كرم من سوريا يقول :

- مـرّ الكثيـر مـن الزنـاة والقراصـنة والمقـامرون وقطـاع الطـرق علـي شـاطيء بحـري , ومـا زال المـرور ممكنـاً ومتاحـاً نحـو الابديـة فـي تفاصيل القصة البلهاء.
- أظـن أنـك محقـاً يـا كـرم , ولأنـي أخشـي دائمـاً أن أجـزم فـي ماهيـة الاشـياء , او ربمـا اخـاف البـت فـي معنـاه المجـرد , أكـره الحسـم واتـرك الاشياء هكذا علي عتبة الوقت

هـا هـو البيـانو يأخـذ هيـأة طفلـين بـريئين جميلـين شـائت الآلهـة أن يُنجبـا فـي وطـن اخـر وجغرافيـا اخـري تشـبة كثيـراً وطـن منقـو قبـل البتـر والتبلـور , تُـدعي سوريا .طفلين رائعين يلعبان الأن مع صديقي كرم

طفلين يحملان السماء حلماً علي ظهرهما ...

طفلين يتمخضا آلاف الاسئلة ...

وأُنثـي البيـانو تلعـب فـي رأسـي الأن , تصـنع مـن شـظايا المـخ طُعمـاً لـوتر جديـد تغزلـه علـي مهـل تسـتحي مـن المكـوث اطـول فتـرة ممكنـة بجـوار هـذا الكـم الهائـل مـن التـوتر والقلـق , تتصـورني جرحـاً يتحـرك او ربمـا زراع يـئن تحـت وطـأة منـزل قـديم , هـوى فجـأة علـي سـاعد الحلـم الجميـل ليتحـول الـى لا شـيء تحت الأنقاض ،

تُري هل ستعود حلماً مرة اخري أضعه في حضن فاتن ؟

تُـري هـل سـتبقي هكـذا ؟ , تخـرج رويـداً رويـداً مـن بـين قصـص حجازيـة نحـو الفـراغ ، فـي الأفـق تتسـع مخيلـة المسـتقبل , تضـخم عواقـب الانتظـار وتكتفـي بأنصـاف الحلـول , انصـاف المخـاوف , وانصـاف الإحتمـالات ايضـاً . تحـاول أن تكـون مثاليـة بعـض الشـيء مـع شـخص لا يرضـي بمـا هـو عـادي وطبيعـي , آه كـم يلزمنـا مـن الغبـاء لنكـون رائعـين فـي مجتمعاتنـا , كـم مـرة نلتفت لنجرب حظوظنا المتكأة علي النفاق والتصنع

كم مرة يا فاتن ؟

الى متي سألعب دور الرجل الملتزم المتدين كي انال إعجاب والدك

في كل جلسة قهوة كنت أرغب بشدة في إخبار والدك بحقيقة الأمر , تمنيت أن أتقيأ الحقائق في وجهه كعادتي , لكن كنت ألمح عيناك في وجهه , كنت أراك خلف شيخوخته أُنثي شابه ترقص بعشوائية وفي نفس الوقت تمر وصاياك بخاطري فأتجاهل الفكرة او ربما أصب غضبي على فنجان والدتك البريء ، كل العطور الفخمة يا عزيزتي لا تقتل رائحة التبغ والخمور ولفائف المخدرات , ثمة سر سأقوله لكِ يا فاتن ليست لدي القوة الكافية للمكوث اكثر من عشرة دقائق امام والدك صاحب البطن المترهلة وضحكاته المجلجلة ليحكي لي بعد التحية مباشرة سلسلة مغامراته الفاشلة وعمله في السلك الحكومي كرجل شرطة برتبة نقيب ، كان دائماً يتحدث عن السجناء , عن الحمقي المدانون والاغبياء المتهمون , عن الصول حسن رجل التعذيب , عن بائعات الخمر , عن الرشاوي والمحسوبية , عن مداهمات الشرطة للاسواق الشعبية , صدقيني لقد كرهت والدك منذ ذلك الوقت بقدر حبي لكِ , لم أندهش عندما أغلق الباب وقدم لي النبيذ لانه سلوك متوقع من رجل قانون فاسد جاحد .

لاول مرة يجمعني سقف واحد مع القانون وكأس ايضاً , القانون تماماً كما وصفته محاسن بائعة الشاي والهوى ـ وكأن الحكومة تقف امامي عارية تماماً حتي من الحياء تقاسمني قنينة اجنبية قيمتها خمسة دولارات امريكية مأخوزه من جيوب الوطن.

وفي زحمة تهيآتي أرى حجازية في مخيلتي تقارن نفسها بفاتن بثوب لم يأتي به والدها في عيد ميلادها الاخير ، بكفين لم تخضبهما الشوكلاه بشعر باهت وعينان ناعستان لم تُغمض منذ ايام جراء عواسة الأبرى العتيق.

بـدراهم إكتسـبتها مـن الإحتطـاب ، وأعـود مـرة اخـري لأجـد العجـوز ينـاولني كأس آخر ...

بعـد كـل كـأس أرتشـفه يبتعـد الثـائر الـذي بـداخلي خطـوتين , بعـد كـل جرعـة أري قضـيتي تجمـع نفسـها ورقـة ورقـة متأهبـة للإنـزواء او الرحيـل , أري الشـهداء يخرجـون مـن قبـورهم , يلعنـونني بشـدة , أري الأرامـل يصـرخن ويبصـقن فـي وجهـي , أري كـرم مـن خلـف شاشـة هـاتفي يـذكرني ويضـربني كـي أعود الى رشدي .

هنـاك فـي الزاويـة تجلـس فـاتن بكامـل برائتهـا وعيناهـا يفيضـان بالاسـئلة , تسـألني عـن ذنبهـا فـي مـا يـدور , هـل هـي مـن إختـارت والـدها أم انهـا مشـيئة الرب , الاقدار مرة اخري تضعني في موقف حرج ،

أأختـار فـاتن وحـدها , أم حجازيـة والثـورة والـوطن وصـديقي وطفليـه وقضيتي ؟

هـا هـم الشـهداء يصـرخون , لـن نعـود حتـي تختـار , لـن نرقـد بسـلام وعليـك أن تحررنـا مـن هـذه الضـائقة , هـا هـن الأرامـل يجلسـن بـالجوار يأخـذن دورهـن فـي المشـهد وينتظـرن القـرار ، علـيّ أن اتنـازل عـن الحـب , لا يمكننـي أن أُبـدل وطـن واحـد بـأكثر مـن وطـن , لا يمكننـي أن اتـرك المـوتي هكـذا فـي العـراء , لا يجـب أن يتضـرر اكثـر مـن شـخص اكثـر مـن قلـب اكثـر مـن وطـن , أزرار البيـانو تتهمنـي بالخيانـة , حجازيـة توقفـت عـن سـرد القصـص والاطفـال جمـيعهم ينظـرون نحـوي فـي إنتظـار قـراري الـذي بمثابـة رصاصـة إمـا أن تقتـل شخصـاً واحداً او تقتل الجميع

لا أرغب في الحب , لا أرغب في فاتن

فاتن __ هكذا ببساطة

لـم اتجـرأ علـى النظـر إليهـا , هكـذا جعلنـا الحـب يعـيش مجـدداُ فـي الـدواخل , هكذا قتلنا كل شيء جميل يخصنا

في الصباح ...

جائتني حجازية في ثوب العلم

جائتني تزفها الارامل , الشهداء , الاطفال , الوطن

جائتني علي مهل وهي تجمع في طريقها قضيتي , احزاني , اجندتي لنكون قصة سردتها للاطفال في شكل فلم وثائقي في شكل مسلسل قتل فيه البطل من اول حلقة وحرب مات فيها الكثيرون.

ربما سألتقي بفاتن في حياة اخري كما تقول هي ، ربما هذه هي سر اصابع و أزرار البيانو ، ربما وربما , ويبقي الجزم محرماً في منطق الاشياء التي نجهل روعتها ورداءتها علي أيّ حال , كالبدايات مثلاً , كالنهايات مثِلاً وكحجازية احياناً.

12

توهـــــــــــــان

كلمـا أرى وطنـي الموبـوء المحتـل اشـتاق الـى تلـك المنـافي الموحشـة المحببـة الـى قلـوب اشـخاص مـا فينـا, وعنـدما يضـايقني المنفـى ويـأجج الحنـين اشـتاق وطنـي او ربمـا تترقبـه ذاكرتـي وتعيـدني الـى ذاك التفاضـل المميـت بـين بيتـاً يحتـرق ومهجـراً لا يبـدي عناقـاً يليـق بطفـولتي, هـو صـراع بـين ماضـي تليـد وماضـي قريـب شـكّلا رجـلاً بـداخلي كمـا يجـب أن لا يكـون, وصـورة أُمـاه المخبـأه فـي حقيبتـي بـين عشـرات الوعـود والتـذاكر _ اشـقائي_ اصـدقائي وتلـك البيـوت الطينيـة العـامرة برفقـاء الهجعـة والشـامتون ايضـاً, احـلام البسـطاء تـراودهم فـي صـحوهم وذاتهـم تعيـد صـياغة إمتنـاع جديـد, ربمـا لأن خطيئتـي هـي عـدم رضـايّ بتلـك الاشـياء العاديـة, أن احلامـي اكبـر مـن أن تخـرج عبـر تلـك النوافـذ المشـرعة مـن غرفتـي الطينيـة ، خطيئتـي أنـي لـم أكتفـي بالـدعاء وإرسـال الإبتهـالات نحـو السـماء, خطـأي عـدم المقاومـة عنـدما قررت الارض أن تلفظني بعيداً ،

هـكـذا إذاً...

منـذ طفولتـه يتملكـه فضـول التعـرف علـى الاشـياء بطريقتـه, يتملكـه إحسـاس مـا فحـواه أن الجميـع يصـيغون سِـير عـن ماهيـة الأشـياء وفـق قـدراتهم الذهنيـة او علـى الارجـح التـي يسـتطيعون إمتلاكهـا, كـان علـى يقـين بـأن ثمـة فـوارق عقليـة جمـة وآليـات تجعـل الإنسـان متجليـاً فـي علاقتـه مـع حواسـه, إذاً الحقيقـة بالنسـبة لموسـى خفيـر مجـرة إقتراحـات او وجهـات نظـر حظـت بعـدد كبير من الثناء والتأييد ،

والدتـه عشوشـة الحكامـة او كمـا يسـميها موسـى ممازحـاً بائعـة الارواح تبـدو فـي أبهـى شـاعريتها وهـي تحكـي لإبنهـا روايـات الحـرب وشـجاعة الفرسـان واصـالة

الخيـول فـي صـراعها مـع الطبيعـة والآخـر المختلـف, المختلـف دينيـاً وعرقيـاً وثقافياً بـل وحتـى تلـك التـي تحظـى بحلقـة صـراع اكبـر اللـون, تحكـي عـن وقـائع اطلقـت عليهـا إنتصـارات او ربمـا قصـدت أن تحظـى بفـارس اخـر فـي مسـتقبلاً مـا تـراه قريبـاً, لـم تكـف عـن مـدح اشـخاص مـن بيـنهم والـده بـابكر عـن بسـالتهم وفروسـيتهم وضـخامة اجسـادهم وقـوتهم التـي لا يكتـرث لهـا موسـى, كـان يضـحك بهسـتريا وتكلـف فـي نفـس الوقـت وهـي تمضـي بـه فـي أوج حروبـاً لـم تكـن مـن اجـل سـماء او عقيـدة او عِـرض كمـا لُقـن خلـف الاسـوار الشـوكية, اسـوار شـوكية تحمـل لافتـة كُتـب عليهـا مدرسـة ، المدرسـة وقصـص عشوشـة شـكّلا تضـاد عميـق فـي جـوف موسـى خفيـر, شـكّلا صـراع جعلـه يتقفـى بعـض الحقـائق, ربمـا رغبتـه فـي معرفـة الحقيقـة او محاولـة لإيجـاد وسـائل تُبـرأ عشوشـه فـي نظـره, وقـف عنـد زاويـة القريـة وأخـذ يتفحصـها عـن كثـب بعينـان محايـدان وبسـجية الإنسـان المجـرد مـن الإنتمـاء الـى مفـاهيم التطـرف بمختلـف انواعـه, لكـن صـعوبة الامـر والـوعي المغلـف بالأيـدولجيات والهـامش سـاهموا فـي أن لا يتوصـل موسـى لشـيء فـي الثلاثـون ربيعـاً مـن المكـوث فـي قريتـه تلـك شـاهد موسـى وسـمع ورأى بـل وإستنشـق راوائـح الكراهيـة والضـغائن, وكـأن تلـك القـرى دول صـغيرة تحـارب مـن اجـل مواطنيهـا وكأنهـا جنـان تحفهـا ملائكـة الشـر حفاظـاً علـى آلهـة مجهولـة وعبيـد دخلوهـا بعـد قـرن مـن القداسـة والورع, شبح والده بابكر ممتطياً جواده وهو يصرخ ؛

- أنـت جبـان يـا موسـي أنـت إمـرأة يـا موسـي لمـاذا لا تحـارب مـع الرجـال كالرجـال ؟ حتـى والـدتك أشـجع منـك, يـا ليتنـي اسـتطيع قتلـك لأغسـل عاري.

لبرهـة أحـسْ وكأنـه يحمـل فـي احشـاءه طفـلاً لـيس شـريعاً, لأن النسـاء الحوامـل اللائـي لا يملكـن ازواجـاً يقـتلن فـي تلـك القـري او يهـربن الـى الغابـات المجـاورة ليصـبحن طعامـاً شـهياً لسـكانها وفـي كـلا الحـالتين يفـارقن الحيـاة

وهـذا هـو حـال النسـاء فـي مجتمعـات تختـزل معنـى كلمـة شـرف فـي غشـاء بكارة

بعـد التفكيـر مليـاً فـي الامـر قـرر أن يهجـر قريتـه الدمويـة, قـرر أن يهـرب حتـى تسـنح الظـروف بـالعودة الـى مـا اطلـق عليهـا مجـازاً هـواكير لظـى, سـافر الـى حيـث المـوت مختبـأً خلـق القضـبان ومقصـلة الإعـدام, الـى حيـث المـوت متجليـاً بكـل صـوره عـدا أن يمسـك احـدهم ببندقيـة او سـيف ليسـلبك روحـك, هناك الموت مغاير تماماً ومروعاً في ذات الوقت, قال في نفسه :

- المدن تقتل ببطء وعلى صورة اجزاء.

عمـل خياطـاً بإحـدي الاسـواق الصـغيرة بصـحبة كهـل طـاعن فـي السـن سـاعده فيمـا بعـد علـى أن يلتحـق بمدرسـة ثانويـة فـي اقاصـي المدينـة او بـالأدق حـيّ شـعبي متعـدد الاعـراق والاجنـاس وحتـى اللغـة, أحـسْ بتلـك المفارقـة والتـي جعلتـه يـدخل فـي دوامـة مقارنـة باهتـة لعـدم إلمامـه بالمـدن وخوفـه مـن لعنـة الماضـي وذكـراه, تـذكر بوجـدان طفـل والدتـه عشوشـة ووالـده بـابكر عانقهمـا عناقاً طفولي وعاد مرة اخري على صوت ذاك الكهل وهو يردد:

- عليـك أن تلتحـق بإحـدي المـدارس وإلا سـينتهي بـك الامـر كمـا تـرى! رجـل عجـوز دون ابنـاء او زوجـة ودون حتـى مـن يبكـي عليـه عنـد وفاتـه, إلحـق بنفسـك يـا بنـي وإلا لـن يفتقـدك احـد, إصـنع شـيئاً خالـداً فـي حياتك __ صدقني

عـاد للعمـل ولكـن صـدي حـديث ذاك الرجـل يتـردد بـين الفنيـة والاخـري, صـدي ثقيـل يصـبغ اذنـاه الواسـعتين, صـدي يأرقـه وكـأن السـماء كلفتـه برسـالة مـا الـى قـوم أشـد لعنـة مـن قـوم موسـى النبـي, حـرص علـى إرتيـاد تلـك المدرسـة حرصـاً متناهيـاً متنامياً طيلـة الـثلاث اعـوام, ثلاثـة اعـوام كانـت كفيلـة بصـياغة إنسـان قـروي جعـل الامـر مسـتحقاً كفيلـة بـأن تصـنع حلـم وهـدف سـامي يسعى إليه, كفيلة بأن تضعه في اول الطريق

لكن صديقه العجوز لم تطاوعه السماء ليرى موسى يعبر تلك المرحلة, لم تدع ذاك الكهل ينعم بإحساس الأبوه قدر الإشباع ؛ إشباع حرمانه الأبدي, لمح في موسى إبن لم يكلفه الله عناء إنجابه وسنداً جاهزاً للإتكاء ، لكن لله ما اعطى ولله ما اخذ .

تألم موسى حد البكاء, كان يظن بأنه وجد أباه الروحي اخيراً في زحمة المدن العجيبة والتضاريس والفصول, آزر نفسه بنفسه مواسياً ذاته العميقة مقدماً بعض الوعود وممهداً لخلود ما أيّ كان نوعه .

سافر بعد أن عزى نفسه والمدينة الى بلاد لم تتنبأ بها مخيلته رغم خصوبتها أخذته الاقدار الى القاهرة ليلتحق بجامعة قناة السويس_ كلية الهندسة, جالس فيها عدة مجتمعات بعدة ثقافات وحضارات, شاهد فيها بلاده من زاويا متعددة ومن وجهات نظر متعددة ايضاً, كان حاضراً في تلك الليالي الثقافية والندوات التنويرية والتوعوية عن الحروب الاهلية وصراع الديانات عن المدارس السياسية والتيارات اليمينية واليسارية , وفي خضم ذاك الحراك المعرفي وجد نفسه وبلاده اكثر من مرة بل وجود هواكير لظى كان طاغياً للغاية, توصل الى حقائق غائبة واخري مفجعة حد الصدمة, علم أن كلمة جنجويد تعني بابكر وعشوشة وكل من يمتطي جواد او عربة دفع رباعي ليحقق مطامع إثنية اوالا منطقية الإستعلائية, تأكد أخيراً بأن عشوشة ليست بريئة بأن سكان ما اسماهم بهواكير لظى هم من انتجوا ذلك الصراع الذي يخدم اجندات خفية طفت الى السطح, لاول مرة يعرف من أيّ سماء سقطت تلك البنادق على أرض الكادحين وأيّ إله اسقطها ، قال في نفسه بعد أن محى آثار دموعه:

- ما اسوء أن يخبرك الغرباء بما يحدث في بيتك!

مضى الى أن لامس النيل, النيل الممتد من وطنه الي اوطان آخرى, تعانقا عناقاً خفيفاً خشية أن يتعمقا في علاقتهما, تعاهدا على أن تبقي العلاقة

سطحية بقدر الإمكان, كان يزعم بأن النيل محايداً يجب أن لا يعرف شيئاً وكان يحقد النيل في نفس الوقت لأنه يملك اكثر من وطن واكثر من علم

في السابع من يناير لعام ستة عشر وألفين وصباح ممزوج برائحة الورود النقية التي تنبعث من ارصفة القاهرة المدينة الفرعونية رحل موسى الى العراق حيث الاوطان المحتضرة تتشابه والطغاة والضحايا ايضاً يتشابهون, كان حلمه أن يحظى بدقائق مع معشوقته بغداد والدة المتنبي, فرحة خاصة إعترته وهو يستعير منها الدفء ليبدد شتاءات الماضي البعيد ؛ سحق كل المسافات من اجلها _ تذكر حينها عشوشة بائعة الارواح تذكر تلك القصص المضللة لكن بالرغم من ذلك ثمة مشاعر مجهولة تسوقه إليها, هو إبن وهي أُم ومن الطبيعي أن نجد تواصل غير طبيعي, وهذا هو السر الذي وضعه الرب .

هلْ ضيفاً على بغداد في وقت كان في أمس الحاجة لبقعة او إنسان يعشقه من الدواخل, داعب ازقتها ومقاهيها _ خالط شعرائها وفنانوها وكان لنادي الادباء رونق وبريق خاص خاطف, شعر وكأنه يأخذ نزهة في كتاب, وكأنه يجوب بلاد فارس في عصراً مضى وما اصعب المضي الى الوراء, هو هكذا يحزن نياية عن كل قطعة ارض تئن وبشر يعانقون الموت, سأل نفسه حينها:

- كم هيأة يتخذها الموت ؟

مكث هناك على هامش المدينة, لا ادري هل هو من يعشق هوامش الاشياء ام الهوامش هي من إستذاقت مكوثه, إستأجر غرفتين في حي الصالحية الذي يعج بضجيج الاطفال ودوي المدافع ليُبقي جسده عرضة للحاق محتمل بإحدي قبورها التي تبدو نهاية مستحقة بالنسبة له, لكن عندما لا ترغب السماء بك لن تستطيع وحدك في لحظة إحباط أن تذهب إليها, شبح الوطن المشابه يطل من نوافذ الامكنة نصف المغلقة وعبير عربي مغلف بالدماء يقتحم انفاس موسى متلصصاً ومداهماً ذاكرة ملت

التنقل والسفر عبر بقاع وازمنة ومسافات لا تقاس بمنطق الفيزياء وقوانين الفلك, لتوقظ اوهام العودة بعد تحقيق احلام مجهولة لم تسمح طفولته المشردة أن يصيغها على فراش المهد, فما اسوء أن تعي في لحظة ما انك لم تتذكر من طفولتك شيئاً قبل الثالثة عشر من عمرك وتبدأ تلك الاشياء بمطاردتك عند الكِبر لتضعك في أوج توهان عميق لا تدري متى سينتهي!

بعد خمسة عشر عاماً...

وفي لحظة تخلص فيها من مخاوفه قفذت فكرة العودة الى الوطن متخذة عدة توقعات منها إحتمالية تغُير الاوضاع في البلاد خصوصاً هواكير لظى وأن السماء قد قررت نيابة عن سكان البسيطة إنهاء الحروب او ربما نقض العهد وتعجيل العقاب وفي كلا الحالتين يُعد تدخلاً حميداً, هو يتمنى أن تنتهي فحسب لا كيف ؛ لكن كلما أعاد التفكير في الامر بعقلانية ادرك أنه مخطأً وأن النهاية لزاماً على الارض خلق جيناتها وجزورها ــ وفي خضم ذاك العراك الداخلي المميت بين المنفى المُعذِب والوطن المُعذَب هط مقزوف آر. بي . جي ليحسم ذاك الصراع ويبت في امر الوجهة النهائية لموسى خفير, هي نهاية ايضاً لكنها ليست التي في ذهنه, بل رداً قاسياً لذاك السؤال الإعتراضي المنطقي:

الى متي التأرجح ؟

13

عـزاءٍ عـلـي ورق

هـي طفلـة نسـجتها فـي مخيلتـي تـواطئاً مـع أُنثـي علـى الـورق , ولأسـباب اجهلهـا أطلقت عليها ,نضال ،

مـارس شـهر السـنة الضـوئية فـي فضـاء الـذاكرة حيـث الايـام لا تقـاس بمنطـق الارض ولا حتـي إعتقـاد الارقـام والكهنـة , مـارس الـذي يـؤرقني نبضـه عنـد دورانه كل عام ضوئي , مارس المعبق بجينات الوداع وهرمونات الرحيل ،

هـا هـي نضـال فـي موسـم عفـى المنـاخ عـن تسـميته , تحاصـرني كالأفكـار وتسـاومني علـي روح تقسـم بيننـا ذات حلـم , فكـرة الحيـاة علـى الـورق لا يـروق لهـا , فـي نبـرة صـوتها بحـة حـزن عميقـة جـداً , تحسسـت لأول مـرة ألـم ضـخم تحملـه فـي طيـات إبتسـامتها وفشـلت هـذه المـرة فـي إخفـاءه , فشـلت فـي تضـليل حواسـي او ربمـا كنـت دقيقـاً هـذه المـرة , هـي هكـذا لا تحـب مشـاطرة الألـم وتـدفن حزنهـا , اسـئلتها , خوفهـا ، كلمـا أفرطـت فـي توزيـع الإبتسـامات , كلمـا هربـت مـن نظراتـي اكثـر مـن ثلاثـة مـرات فـي الثانيـة أيقنـت أن الألـم كبـر وبـات أشـرس , إذاً قارئـة الفنجـان صـادقة فـي نبوءتهـا , كاذبـة تحيـك صـدق او هي الصدفة ،

- ألست محقاً يا نضال ؟

أتـذكرين تلـك الليـالي , تلـك اللحظـات السـعيدة , حينمـا نلعـب الغميضـة , حيـث تـربطين قطعـة قمـاش حـول عينـا القلـم وتهـربين وتركضـين الـى حيـث اجـدك كـل مـرة بعـد بحـث أتعمـد إطالتـه بـين السـطور , ابحـث عنـكِ خلـف كـل فاصـلة وسـكون خلـف كـل الآهـات والكسـور خلـف كـل قافيـة ومشـهد , اجـدك بـالقرب مـن كلمـة أمـاه دائمـاً , قربهـا بالضـبط فـي كـل السـطور تعانقينهـا

وتبكين تحاصرينها حتي تبتل رزمة الورق وترسمين بدموعك بقعة ظاهرة ككوب عزاء إندلق على كفن أهمله حارس المقبرة

أتذكرين عندما كنت تخفين الأدلة عن وجهك , عندما تمسحين دموع الحنين والإشتياق لترسمي إبتسامة جميلة توهمينني بها , صدقيني انا من وضع ذاك المنديل في جيبك .وضعته لأعرف كم مرة ستبكين في اليوم وكم مرة سيلامس خديكِ الناعمتين , هو ايضاً كان يشكو ويعتذر, كان يقول أنه لا يستطيع تحمل براءة القطرات , آه ، كنت أعلم ومع ذلك أترك لكِ مجالاً لتبكين ، أترك لكِ فرصة لتعانقي والدتك , تعانقيها هكذا بين قوسين ، انا ايضاً كنت أبكي , أبكي لأجلها .لأجلك ولأجلي ايضاً , لقد تعودت منذ طفولتي أن أبكي لأجل أيّ شخص أن أبكي نيابة عن هذا الكون وعن كل قلب حزين , حتي دموع الفرح أتكفل بها فالأشياء التي تموت يا حبيبتي لا نستطيع إحيائها حتي وإن كانت جثة علي ورق حتي وإن كان القاتل يراع رفض المثول إلا للطبيعة حتي وإن كنا نحبهم ويحبوننا , لا شيء يعود اللأيام الجميلة الأصدقاء الرائعون وكل شيء , هكذا هم يموتون مرة واحدة ونحن بدورنا ندفنهم كل ليلة واكثر من مرة اصمدي يا نضال فالنضال صمود ، ها هو الليل يحمل في جُعبته الكثير من الأرق والإرهاق , يجثو علي صدر الدفاتر ويتسلل بين السطور باحثاً عنكِ .عني وعن تفاصيل لا ترتقي الى الابجدية او ربما حتي الابجدية لا تملك القدرة على صياغتها , فاللغة احياناً لا تستطيع حياكة احاسيسنا في جمل ، أراك , أراك يا نضال تخرجين في عتمة الليل وانتِ تحملين بعض الورود البيضاء قاصدة قبر أماه في الفصل الاخير , أراك حافية تتسللين من بين احضاني واضعة يدي علي رأس دميتك مشاعر كي لا أحسْ ولا يحسُ بكِ السرير ، او لا أري عيناي تبتعد او تسير ؟

حباً اتجاهل الرؤيا وأغفو ليلتين , حباً اترك الباب نصف مغلق او أقل , حباً اجمع الغطاء على وجهي كي اداري إستفاقاتي والقلم , والأن يا طفلتي حتي الدفاتر لا تكف عن الصراخ حتي الشعر رفض المثول امام ارباب الأدب

وبات يرفض إنصياعات المداد للقوانين الرتيبة , حتي انا اصبحت لا ادري كم توازي إبتهالاتي في موازين الإلة من اصل الخطيئة .

عند تخرجكِ من الروضة , تمنيت أن تخرج أماه يوماً في العلن من سجنها الأبدي في وسط الكتاب لتهنأ الوطن الصغير , تمنيت أن تطبع القُبل القديمة كلها , تمنيت أن اقول لها ها هي نضال كبرت وباتت تملأ الشارع ضجيج .تملأ القاعات لحناً وموسيقي , تملأ الآفاق حباً في المساءات الأنيقة , ترقص فرحاً وتنشد امام مئات البشر قصائد من كلمات أماه في مهد الصغر .قصائد صاغتها وهي تحمل نضال في احشائها حلم جميل ووطناً أبدلت جيناته حبراً ودماً.

ونضال تكبر في يدي مع كل بيت من شعر , تكبر هكذا وسط السطور فأرسم لها اجنحة ملونة كي تطير كي تحلق أعلي ما يكون كالعصافير الجميلة في سماء لم يخصص لأحد لتعانق القوافي في السماء ، قالت بعد أن امطرها العالم بالإهداءات والقُبل , سأخبر أماه سأدعو الله ليفتعل لنا لقاء في الجنة , لقاء الى الأبد , لقاء نقتل به كل يوم حزين وكل مسافة لعينة وكل وقت قضيناه بعيدين عن بعضنا , سأجمع احزاني واحرقها دفعة واحدة في هيئة شوق إجتاحني منذ الأزل

- هل تذهب معي ؟ أو لا تشتاق أماه يا أبي ؟ أو لا ترغب في لقاءها ؟

وانا أقف مصدوماً امام طفلتي , أقف مذهولاً أصم امام حبيبتي الصغيرة التي تداهمني بإسئلتها وتحاصرني على الورق , لم تترك مساحة فارغة او فاصلة اهرب بعدها الى فقرة جديدة او نقطة أنهي بعدها هذه المقابلة التي إرتجلها القدر ليضعني في موقف اقوي من ما كنت اتخيله .

الرحيل هو الرحيل إن كان بوداع او دون وداع , إن كان ببكاء او دون بكاء , إن قالوا بأنهم ذاهبون او لا , في الحالتين سيحطمون قلوبنا ويبعثروننا الى أشلاء وفي الحالتين ايضاً سنلحق بهم يا صغيرتي

بعد عامين ...

وفي صباح لا يشبة الصباحات القديمة , فاجئتني نضال وأفجعتني في ذات الوقت , رحلت الى حياة اخري ننتمي إليها جميعاً , حزمت حقائبها دون أن تخبرني او ربما لم تكن تعلم الى أين تتجه , حفرت قبرها بجانب أماه منذ اخر زيارة , ماتت ودفنت نفسها هكذا بين قوسين في بداية أقسمت أن لا تنتهي ، لم أكن دقيق لأفهم قصدها عند اخر حديث صريح بيننا , ذهبت لتكون بجانب أماه كما قالت لتعانقها اول مرة , اول يوم تكون فيه دونني واول يوم اكون فيه دونها واول يوم لها مع أماه ، انا لا شيء دون نضال

حتي دميتها مشاعر كانت تبكي , بل رفضت أن تأكل , كنت أراها وهي تأكل مع نضال رأيتهما اكثر من مرة يمارسان طقوس اجهلها , رأيتهما يتهامسان ليلاً في اخر يوم لها وكأنها كانت تودعها وتجود لها بسراً تحفظه لي ، بكيت معانقاً مشاعر دمية طفلتي وصديقتها وإبنتي الاخري , همست لها متسائلاً :

- هل تركت لك بعض الوصايا يا مشاعر ؟ هل قالت شيئاً ؟

أجابتني بصوت مبحوح

- أجل

قاطعتها

- ما هو

قالت وهي تبكي

- هناك قبراً بين قوسين في الفصل الأخير أهدته لك

14

محطـــة تيبـــورتينـــا

حيـث القطـارات لا تكـف عـن الصـراخ , والمشـردين ايضـاً ، محطـة أجبرتنـا الحيـاة أن نقـف فيهـا لوقـت حـددتها هـي , وأزاحـت القنـاع عـن مدينـة رومـا لتظهـر أمـام أعيننـا قبيحـة جـداً ولأبعـد مـا تتصـور ، خانتنـا أحـلام الطفولـة او ربمـا لـم تكـن تقصـدنا او كمـا يقـول مـن هـم تحـت ظـلال الامكنـة التـي لفظتنـا بعيـداً الهـاربون ، تيبورتينـا مـأوي الاجسـاد الهشـة وبيـت الأمـوات الضـاج بـأنين الغربـاء الغربـاء جـداً حـد الإنتمـاء الـى كوكـب آخـر ، هـذا ماقالـه يسـيع عنـدما قـدمت لـه قطعـة البيرغـر الحـارة , يحكـي وكأنـه وجـد أخيـراً الله بالصـدفة فـي إحـدي شـوارع العاصـمة الإيطاليـة وأنـا عبـداً لا تطاوعـة فرشـاة الرسـم وأقـلام التلـوين علـي تحـدي بيكـاسو القـديم المتجـدد , أنـا الـذي لا يختلـف كثيـراً عنـه إذا مـا جُـردت مـن معطفـي ومخيلتـي العـذراء وآدميتـي سألته:

- أين تسكن يا يسيع

أشار لي نحو محطة القطارات مضيفا:

- الأن نسـكن هنـا فـي غـرف السـكة حديـد وآخـرون علـي السـكة نفسـها لكـن! لا أعلـم أيـن سـنكون عنـد المسـاء فالأيـادي القـادرة تحولنـا كرقعات الشطرنج أينما شاءت وكيفما شاءت لا شيء هنا مثالي
- هل تعرفون بعضكم البعض
- نحـن دمـاء متعـددة الجغرافيـا والجنسـيات فقـط تجمعنـا الظـروف التـي صـدرتنا مـن بلـداننا الـي هـذا المكـان الـذي يشـبه كثيـراً البقـع التـي تركناها , وإن كانت لا تطعمنا الرصـاص .

يسيع صورة مصغرة لآلاف مثله بين أنياب وأنقاض الجوع والمرض وفي أحضان اللا معقول , فملامحهم الوحشية تعكس قذارة أمكنة ومجتمعات إنحدروا منها مرغمين علي المخاطرة بأنفسهم فالأمر يفوق توقيع معاهدات علي الورق وتسميتها علي هوي الموقعين

هل تعلمون ما معني أن تتمرد عليك الأرض ؟

معني أن تضل حتي الطريق الى ذاتك ؟

معني أن تبحث عنك في إبتسامات المارة ؟

مجتمعات ستموت فيها أن لم يخلقك الله وفي فمك ملعقة ذهبية والأبشع من ذلك أن تضع ضميرك في محفظتك وتذهب الى الجنان , جنان لا تدوم طويلاً وقد يتكرر دخولك وخروجك منها أكثر من مرة ، دموعنا , دموعهم لا نستطيع خنقها في جفون تمردت علينا وسالت كالخذلان علي خدودنا العارية تماماً من علامات الخجل , فثورة الأحاسيس والمشاعر بداخلنا لا تكفي لإشعال تلك الأوراق المرصوفة أمام أصحاب الياقات البيضاء تذكرت حبيبتي أسماء وأنا أتجاذب اطراف الحديث مع يسيع , اسماء التي جاءت بها الحياة علي صورة تلك الخطيئة المرتكبة في حبو الزمان والي أخر قطرة من خندريس حواء الذي يغادر قِدرتها تواً الي إمعاء من لا يملكون سوي البنادق مروراً بأصحاب المكاتب المغلقة والجباه الموسمة سألتني يومها هل سيعاقبها الله علي خطيئة وجودها هنا دون وثيقة ؟

أجبتها والعَبرة تخنقني :

- لا لا يا صغيرتي انت لم تذنبي , نامي الأن

نامت هي او ربما أغمضت عينيها لتوحي بذلك موقظة جرحاً قد لا يندمل مدي الحياة جعلتني أسترسل إستفهاماتها الى باطن العقل المشلول نوعاً ما وأعود دون أجوبة تقنعني او تقتعها

أه ,,, يا إلهي

لا أستطيع , فقط اهرب من أسئلتها التي لا أستطيع البت فيها أمراً أخاف أن يجعلني متواطئاً ايضاً في نظرها , ليس هناك أبشع من مكان ضيق تضعك فيه طفلة ذكية كأسماء إما أن تُغلف الحقائق ككاميرا مهرولة خلف دبلوماسيين أو أن تُدلقها هكذا دون رأفة علي منضدة السائل لكن محاولة إزالة القذارة عنها شيء مستحيل أفقت من كابوس الوراء على صوت يسيع وهو يطلب قطعة بيرغر أخري والمؤسف أن نقودي قد نفذت لا أملك حتي ما أشتري به ورقة أخري أسكب عليها إفرازات الواقع النتن , بعثت بقطعة أخري على أن أسدد قيمتها فيما بعد بضمان أنني من الرواد المتكررين علي المكان لا أحتمل معاناة الأوطان المبعثرة في محطة تيبورتينا وإن كان بوسعي لصنعت كرة أرضية تضمهم وتضمني , يسيع يقضم الساندوتش وكأنه يلتهم كبدة أحد صفوة بلاده وكأنه في نزال قوي مع السلطان بأخر روح تبقت له وقرر أن يلفظها مقابل أن يطمئن على الاجيال القادمة ،

سألني يسيع سؤالاً مفاجىء!

- هل أنت ايضاً مشرد ؟
- نعم يا صديقي جميعنا مشردين بطريقة او بأخري
- إذاً ستعيش معنا هنا في المحطة , أليس كذلك ؟ لا بأس لدي مكان لأجلك
- لا سأذهب الى مكان أخر وزاوية أخري من هذه المرآه التي تراقبنا بشدة
- سافتقدك يا رفيق لكن علي الأقل قل لي من أنت ربما نلتقي مجدداً
- أُدعي لباب يا صاح

- إسم جميل لوطن رؤوف

لبرهة ظننت أنني أعرف يسيع من قبل ولم تكن هذه الصدفة من جمعتني به , رأيته من قبل حتي وإن كان في داخل شخصاً أخر لأن وقع كلماته عليّ تشبه سزاجة شخص أعرفه جيداً . لا يهم ، سألته :

- هل هناك أوطان رؤوفة يا يسيع ؟

ضحك , ضحك بصوت عالٍ جداً ثم أضاف:

- الأوطان يا عزيزي اسماء مستعارة تسرقنا وترمي بنا في سلال أوطان أخري مستعارة ايضاً لنبقي هكذا مسلوبي الإرادة دون أدني إنتماء والسؤال هنا من هي دوننا ؟ والى من ستنصب الأعلام وتنشد القصائد ؟ الى من ستتزين ومن سيُغلق نوافذها ليلاً عندما يتخللها الشتاء والأعداء ؟ الأوطان يا سيدي تبحث عن الدفء في فوهات البنادق ، تبحث عن الستر في ثوب أُغتصبت فيه ذات صيف وهي تحتطب .
- آه يا يسيع أنت اكبر من أن تكون هنا في الفراغ المتناهي او علي محطة تيبورتينا
- وداعاً يا سيدي فأبواق القطارات تنذر بإقترابها , نحن دائماً في إنتظار الأبواق والنفخ سواء كانت هنا او هناك في الصُورّ
- همهمت والدموع تنهمر , الى اللقاء يسيع ، الى اللقاء .... ايها الوطن

هي ليست سوي عبارات من صُنع البشر ليبرروا رحيلهم, فراقهم والسفر الى المجهول او نحوه , دائماً ما يختلقون بِدع الغياب ويقرعون طبول الإياب إن عادوا ، كان الصوت لرجل سبعيني لم أتنبه لوجوده ومنذ متي يجلس هنا ، أخذ الرجل ينشد ويصفق :

صباحك يا وطن ممحون

صباحك يا حلم مجنون

صباحك يا ولد مسجون

صباحِك يا مُدن

مستورة بتوب الكهارب والمجون

مرمية في حضن الثعالب

مرمية في حضن المشايخ

والظنون

صباحك يا بلد ...

صباحك يا بلد واقف علي قلم الخوازيق

والورق

سيب الدفاتر وألحق الطفل

المرق

من وسط رحم القضية

وإتحرق

حاولت جاهداً أن ألمح وجهه اللهوب المغطي بالشعر , مددت له يدي لأرحب به او ليرحب بي لا يهم المهم أن أتعرف عليه , رفض أن يصافحني وأومأ بذلك مضيفاً :

- لقد عُلِمنا بأن السلام لم يُخلق بعد وأن المصافحه تمهيد لخلق مثل هذه الترهات والأكاذيب وفي كل مرة تجمع الحكومة الطين لتصنعه وفي النهاية تكتشف أنها ترسم شبحاً بلا يد يمني
- حسناً , من أنت ؟ ومن أين ؟
- أنا تلك القضية المركونة في دواليب الأُمم والإتحادات وطاولات الرهان , رهان لم ينتهي بعد لنعرف هل حقا خسرنا الوطن ؟ هل حقاً خسرنا آلاف الاميال والبشر والنيلين في مقامرة قذره

على يخت متجه نحو الجنة يحمل زعماء العرب , الأفارقة

- رددتَ وأنا أتألم ,لقد سألتك عن إسمك , من ؟
- إسمي كلثوم
- تباً كنت أظنها رجلاً يا إلهي سيدتي هل أنتِ حقاً إمرأة ؟

كلثوم تضحك , كلثوم تبكي ايضاً , كلثوم تقول :

- الحرب يا سيدي أخذ كل شيء الاطفال الاحبة الاعمام بل وحتي الأنوثة , الحرب لا تترك شيئاً خلفها كياجوج وماجوج تماماً , اليوم لا يهم من أنا إمرأة كنت أم رجل
- آسف سيدتي
- لا يا سيدي لا تحزن الأمر ليس كما تعتقد
- حسناً منذ متي وانت هنا في محطة تيبورتينا ؟
- لا أعلم لكني أعلم منذ متي وأنا في إيطاليا , لدي عشرون عاماً علي الأقل
- يا إلهي , عشرون عاماً من التشرد والعذاب والترحيل القسري الى اجزاء البلاد الاخري

- سـيدي مدينـة رومـا ليسـت للمتسـولين وطـالبي الشـفقة , رومـا للارستقراطيين والبرجوازيين والسُياح فقط
- لروما طريق واحد فقط تستطيع أن تدخل به

قاطعتها ما هو ؟

- الثـراء الفـاحش , رومـا تحـب المـال والجمـال والحُـب ايضـاً فهـي مدينـة العشاق والأنوار الخافتة الضبابية

وأخذت تُغني :

كُنت في بلداً غريب

باع القيم والأنسنة

أزالوا البساط من أسفل التاريخ

وأطوار الأزمنة

صبغوا الرايات بألوان الدماء

السايلة من كل المدن والأمكنة

بحلم وأعاين في البنادق

لا رصاصة صادقة

لا رصاصة قاصدة

تنسف الأعداء في الرمق الأخير

تقتل الرجل المختبأ في قصر الملوك

وتقول في صمت الدُجي

من خانني خان البلاد

- هذا يعني أن روما مدينة مادية للغاية , أليس كذلك يا كلثوم
- دعك من روما , دعك من هذا الوطن الصغير الذي يأوينا رغم مرارات الفقد والجوع والضنك ولنتحدث عن تلك التي في القائمة السوداء تلك التي رمت بنا خارج رحمها وبيتها ، تلك المدنسة بخطايا البشر
- لا تقلقي سنعود حتماً الي اوطاننا

كلثوم ضاحكة:

- بعض الكذبات مضحكة جداً يا سيدي , عن أيّ عودة و أيّ وطن تتحدث ؟ الخروج من الجنان مرة واحدة فقط, كآدم كحواء فالسماء تكره التكرار والأرض أيضاً
- لا يا سيدتي لا تستسلمي كوني صلبة
- الصلابة للمعادن , كيف تأمرني بالصلابة وانت بكامل هشاشتك ؟

تباً للمفارقات .أغرب عن وجهي , إذهب بعيداً

- لا بأس

تحركتُ بصعوبة من مكاني مجرجراً رجلاي تسبقني دموعي كالعادة وفي ذهني كلثوم , يسيع وآلاف آخرون إكتفيت بالنظر إليهم وانا أغادر

ركبت القطار ...

محطة تيبورتينا تلوح لي وكأنها توعدني بإحتضان أشلاء المشردين الي حين عودتي المجهولة هي ايضاً كاذبة كما قال يسيع , ستلفظهم الي محطة اخري او ربما حياة اخري ، إبتعد بيّ القطار , خيم الليل , وجاء الصباح الذي أنتظره ليضبضبني مرة اخري في حقائب الفجر .

15

إتكاءة علي الجُرح

(جاد السيد _ حليمة)

السادسة والنصف صباحاً ...

يستيقظ جاد السيد على صوت والدته وهي تستعير الطايوق من جارتها خديجة , يهب من فراشه فيري جدته ممددة علي سجادتها تمشط شعرها وكأنها تغزل حلماً ستضيفه ليلاً الي دعوتها عندما تقف امام ربها قبّل يديها وإتجه نحو شقيقته نفيسة التي لا تكف عن الدندنة صباحاً بعمود البُن , ليتزود من عبق القهوة دفء الفجر المشرق علي أمل جديد قال لها :

- دائما ما يأسرني الوقع الرتيب ورد فعل حبات البُن علي قساوة المنطق وإنفعال العمود وتلك التي تُدعى حليمة وشتان ما بين حليمة والقهوة لكن ! كلاهما وطن.

نفيسة :

- حليمة تحبك جداً لكنك لم تفهمها
- الحب يا صغيرتي ليس كما تَدعي هي بل ما أعرفه أنا
- كلاكما مغروران ، هي لأنها ستدخل الجامعة وتسافر الي البندر وانت لأنك فقيه القرية واول من درس خارجها
- هذا الذي اخافه الجامعة
- لماذا ؟

- الجامعة مسرح كبير جداً للأوهام , سيئة بالنسبة لبنت لم تخرج يوماً في ثوب غير ثوب والدتها , ستعاني ، ضعي إبريق القهوة علي النار ريثما أهزُ ضرع عازة

ألقي جاد السيد التحية علي والدته وجلس بقربها يتأملها وهي تضع الصاج علي النار , تقلبه وكأنه أحد منافقي مكة القداما وقد أمرها الله بتعذيبه , ملأ كوباً من قدرة اللبن التي بجوارها ورحل ، ليجد نفيسة قد أعدّت القهوة ...

جلسا علي ظل غرفة الطين المتكأة علي شجرة النيم يقبلان الفناجين ويتبادلان القصص وحكاوي القرية ومشاكل نفيسة مع زوجها السكاري ويعودان الي الحب مرة أخري ...

جاد السيد :

- الحُب شيء مقدس ، فالحب الذي جاء في كتب التاريخ على هيأة قيس وليلي وعنتر وعبلة لا أتهمه بالفقر, لكن الحُب وفق منطقي لا يُكتب لا يُدون في شكل قصاصات وقصائد يستطيع أيّ مراهق صياغتها في ورقة عذراء تئن تحت وطأة قلم لا يصدُق في أحاسيسه ومشاعره ، نحن نعشق أُنثيات الأشياء يا سيدتي ... ليست هناك منعطفات تقودنا الي النهاية التي لا نعرف هل بدأت أم لا , فالحُب يا نفيسة هو مرحلة من الشاعرية وهيجان الأحاسيس وفقدان الوعي وووأشياء لا تقال,الحُب قاتل

نفيسة :

- الحُب ال بجنن الله يستر

حليمة تحزم حقائبها الأن قاصدة الخرطوم وفي مخيلتها أن العاصمة تماماً كما رأتها من خلف شاشة منزل حاج احمد

حيث الإنارة لا تنطفيء ، حيث الحياة ترقص علي الأرصفة ، وبائع الورود ينثر الياسمين علي رؤوس المارة ، أرادت أن تلتقي ربما لآخر مرة بعشيقها جاد الذي حاك من بنيات افكاره كلمات وداع تليق بسيادتها او هكذا خيل له ، ها هو جاد ...

حليمة :

- سأذهب الى الخرطوم للإلتحاق بالجامعة

جاد :

- لا بأس حافظي علي نفسك
- سأشتاقك يا جاد
- وأنا ايضاً فالشوق نتاج عرضي للفراق , ثم دسّ في يدها رزمة نقود وحفنة من الوصايا وذهب ، العشاق لا يتحدثون كثيراً لأنهم لن يفلحوا في إيجاد عبارات جميلة عند اللقاء .

إنتهي اللقاء الأخير ... ورحلت

بعد نوبة بكاء حادة نامت حليمة علي مقعدها ولم تصحو إلا عندما توقفوا في تلك المدينة المرسومة علي جبين رجل المرور الواقف بالقرب من شباكها , ترجلت من الباص واخذت حقيبتها وبدأت تستفسر عن مكان وجودها الأن

أحدهم :

- الى أين يا أُختاه ؟

نفيسة ببراءة :

- الخرطوم

أحدهم بسخرية :

- هذه هي الخرطوم

العمـارات العاليـة وزحمـة الخلائـق , آلاف السـيارات والشـمس مشـعلة فـوق رؤوس الفقـراء والهـاربون مـن قـراهم الـى مـدن أوسـع ـــ حليمـة تنظـر الـي كـل شـيء , الـي البـائعين المتجـولين وهـم يصـرخون الـي المتسـولين وأنـوار الأماكن الزجاجية ... إلخ

وفـي أوج دهشـتها العارمـة سـألت نفسـها أيـن سـأجد مـن يوصـلني الـي الجامعـة فـي هـذه القريـة الكبيـرة جـداً , فتحـت مفكـرة الوصـايا وقـررت أن تسـأل احـد السائقين

حليمة :

- مرحبـا سـيدي أنـا جديـدة هنـا أريـد منـك أن توصـلني الـي جامعـة السودان

السائق :

- حسنا تفضلي
- شكراً

حليمـة تنـدهش مـرة أخـري لرؤيـة الجامعـة فقـد دخلـت مـن أوسـع الابـواب بأضـيق الإمكانيـات والمعرفـة , تسـمرت فـي مكانهـا وهـي تـري الجلسـات المختلطـة والقهقهـات التـي تعلـو كـل حـين واخـر , وتلـك الملابـس الضـيقة العاريـة مـن أمـاكن شـتي ، قالـت فـي نفسـها , مـا هـذا ؟ وهـل هنـاك مـن هـو مسؤول عن هذه الفوضي ! أليست المرأة عورة !

توالـت الأيـام وحليمـة تتعـرف كـل يـوم علـي شـيء جديـد ومنظـر جديـد وتتفاجـأ مراراً

بعد ثلاثة أشهر ...

حليمة لا ترد علي رسائل جاد السيد ، لا تأتي في مواعيدها الي الجامعة حليمة مالت الي تلك المدينة , لقد سحرتها بيوت الأشباح والقهقهات فإرتدت ما هو أبشع ، عرفوا أنها من أصل البوادي والقري من معالم لهجتها وبنيتها اللغوية الركيكة وهي تحاول أن تُقلد رصيفاتها , حتي انها لم تعد معجبة بإسم حليمة فإستبدلته بملاذ الذي يبدو أنه اكثر رِقة في نظرها ، وعندما يجتمع دلع الحاضر بقسوة الماضي تصبح الاسماء هكذا :

ملاذ البلولة فضل الجاه عوج الدرب

خدعوها ... خدعوها

خدعوا ملاذ او بالأدق حليمة القديمة في ثوب ملاذ الجديد , لا خير في تلك المُدن المطلية ، وعندما تهب رياح المصائب تقلع الاشياء من جزورها , ملاذ لا تفارق الفتية حتي أصبحت دمية تتقاذفها الايادي وتلعب بها لعبة الإختباء

بعد ثلاثة أشهر أُخري ...

وجاد السيد الفتي العاشق يسترسل في احلامة تلك الجميلة التي غادرت جغرافيا القرية واصبح ، يعيش علي ذكرياتها مشاطراً آلامه مع شقيقته نفيسة وقهوته التي باتت لا تعني له الكثير دون ، مداعبة الصباح البهيّ علي صوت محبوبته حليمة الحاضرة بداخله الغائبة في مدن السواد ، وفي قلبه تتعدد المخاوف ، تتعدد الكوابيس التي دائماً ما تتنبأ بالكوارث وتلك الاسئلة التي تلتحف اجوبتها العدم ، يسأل شقيقته :

ـ هل يمكن أن تنساني ؟ أن تضرب بمشاعري عرض الحائض غير آبهة بذاك القروي الذي رفض حضارات المدن ، المغلفة بالنفاق والوساوس ؟

نفيسة مشفقة :

- لا تفترض وتصدق ما إفترضت فالواقع شيء آخر يا أخي لكن جاد يريد الحقيقة وليس المواساة.

فأخذ يردد :

سألت عنـــــك

قطاطي السكة والزمن العصيب

سألت عنـــــك

صوت قطارات الرجوع

الألَمت ظهر القضيب

سألت عنـــــك

كل محطات المدائن الحلوة

وأنغام الوداع

المارقة من لحن المغيب

سألت عنـــــك

عرافة الشهد الودر

السارحة في صيّ البوادي

ونايا في إيدها اليمين

تعزف تخفف كم سُهادي

حليمة , ملاذ لايهم

هي حُبلي الأن

في مدينة أجهضت كل شيء فباتت متفرغة لوضع مكونات في أحشاء حليمة , وفعلتها ، لن تُصدق , هي ايضاً لم تُصدق لكن! هذه هي الحقيقة المؤلمة القاسية أكثر ، ربما كانت تعلم هذه النهاية وربما لا

حليمة تبكي ...

حليمة تحاول أن تعود حليمة القروية دون طفل دون ملاذ التي سترت خلفها آلاف الاشياء فعرتها غابات النخيل بمبعثرة شرفها علي حدائق المقرن او ربما الحديقة الدولية لا يهم ، حليمة الأن تصنع في مخيلتها غشاء جديد لبكارتها التي مذقتها الخرطوم , التي عبثت بها أمواج النيل وفي ليلة رأس السنة وتتعدد الليالي , وفي ذاكرتها تري البلولة وهو يسير متبختراً في شوارع القرية وتتخيل وقع الصدمة في الوقت ذاته.

يا لسذاجة القدر ، يا لتفاهة حليمة والخرطوم ، وقناطير من الأسافي احملها عبر قلمي الي جاد السيد

حليمة في محاولة إنتحار فاشلة لم تفلح ولم تحظي بالموت , الموت الذي رفض أن يكون عقابها في هذا التوقيت بالذات رفض أن يحسم فوضي الإنتهاكات المتوالية , أنقذها الطبيب دون ذاك الطفل الذي لم يكتمل والخطيئة في مكانها

ذهبوا بها الي القرية ...

فاقت حليمة من غيبوبتها التي تمنت أن لا تفيق منه , وفي فؤادها اصناف الإعتذارات وباقات من الندم قدمته الي نفسها أولاً

سألت :

- أين أبي ؟

لكـن غيبوبتهـا كانـت طويلـة جـداً لدرجـة انهـا لـم تـدعها تعتـذر لوالـدها وهـو يلفظ انفاسه الاخيرة

أردفت :

- أين جاد السيد ؟

تزامناً مع دخول طفلاً ما الي القطية وهو يلهث

سأله الحضور :

- ماذا بك ؟

الطفل :

- لقد هربت من جاد السيد المجنون

أخـذت حليمـة تسـترق النظـر مـن ثقـوب القطيـة بعينـان مـدمعتان لتجـد جـاد السيد مدثراً بالقمامة ويضحك بحُرقة وألم في آن واحد وهو يردد :

كضابين , كلكم كضابين , كضاضيب

16

امــــرأة من بحيـــرة تاجـــانيقا

في فضاء ماتالا إلتقينا وتشاخصت أعيننا ... كانت تتكأ على رصيف المقهي دون قهوة ، كنت أحمل قهوتي باحثاً عن رصيف أتكأ فيه.

أخذت تتفحص ملامحي وكأنها تبحث عنيّ او بالأدق عن شخصاً أخر يشبهني تماماً , تأكدَت أخيراً أنني لست هو فبدأت الخيبة تكسوها من جديد ، أحسست وأنا أراقبها ملياً بأنها تخبأ شيء ما في جُعبتها لأن وجهها المكدس بالندوب وآثار الحمي مروعاً يفضح كل شيء ، بعثت بكوب قهوة أخر وجلست بقربها يسبقني الترحاب

- مرحبا سيدتي أنا بينم رات خام

إستدارت نحوي بعينيها الواسعتين والتي خيل لي بأنهما تعانقاني ثم أضافت:

- مرحبا سيدي أنا روزبير

تبين لي من نبرة صوتها أنها مثقلة بكميات هائلة من الاحزان تأبي أن تتدفق لتُشعرها بالإرتياح , فسألتها بلباقة وتطفل في آن واحد .:

- ماذا بك ؟ أراك حزينة للغاية تحدث إليّ ربما يمكنني مساعدتك

إرتشفت جرعة من قهوتها عسي أن تساعدها في ترتيب أفكارها كي تتخذ قرار ما إذا كانت ستخبرني أم لا ما إذا كانت ستفتح قلبها لهذا الغريب المتطفل أم لا ، قالت لي بأنها من مدينة سادتها الحروب , حروب لا تعرف فيها العدو من الصديق فقدت فيه كل شيء تقريباً , والدها , زوجها , طفلتها وحتي ذاك الأخير , شرفها ، لم تحاول الهروب من قدرها السخيف لكن

التوقيت ليس لها , أخذتها حيث شاءت حاملة معها هول بلاد لم تأذن السماوات أن تقام الحرب فيها وهطت بها هنا في مدينة الأنوار والمقاهي النيلية غير آبهة بأين وكيف ستعيش. لقد أيقظت في آلاف الأوجاع وللحظة جعلتني أعيش المأساة وكأنني من مدينتها تلك

- وأين تقطنين الأن يا روزبير ؟
- وهل يُسأل المشرد عن وطن

طأطأت رأسي باحثاً عن كلمات تخفف عنها عني ففوجئت ببطنها المنتفخ , يبدو أنه طفل في الشهر التاسع ,,, يا إلهي

- هل تزوجت مرة أخري ؟
- لا ولن أفعلها
- إذاً
- فهمت ما ترمي إليه , هذه الحرب يا سيدي رفضت أن تفارقني فجاءت بصورة أخري ومكثت في أحشائي لا تريدني أن أنسي او هكذا خيل لي.

آه كم كانت الحياة قاسية معك , لقد زج بي فضولي في متاهة لا مفر منها ولا هرب شعرت بأنني جزء من الأزمة من الحصار من الحرب التي طالت روزبير ومدينتها , لم أكن أعلم بأن الاوطان ايضاً تحبل

أليس الأُم وطن ؟

كلانا دخل في نوبة بكاء عالية وكل من بالمقهي يتسائل ما خطبهما , وكلانا غير مهتم بمن هم في المقهي

روزبير تُدلق قهوتها علي الرصيف صارخة القهوة مره لكن المرارة ليست في قهوتها المرارة في تلك الجروح التي نُبشت تواً في ذاك الطفل ذو الأربعون أباً وفي تلك المدينة التي أحرقتها البيارق المنافحة

كانت تردد:

لا تسألوني كم أُعاني

بل إسألوا ذاك الوطن

كم كان يشهد من نفاق

- روزبير ماذا تعملين الأن ؟
- أبيع الكوابيس وأشتريها تماماً مثلهم , او أيّ شيء أخر يصلح للموت او يشبهه لا غير ، أرجوك سيدي لا تندهش فالحرب تفعل كل شيء تقتل وتغتصب وتسلب الحرب تفعل كل ما تتوقعه وما لا تتوقعه
- آه , آه يا روزبير الأرض ليست عادلة او أن العدالة مؤجلة الى حياة اخري ، إصمدي ... إصمدي
- كيف والى متي ؟ هل أذهب الى الوطن أم أنتظره ليأتي إليّ هارباً مخدوشاً منهكاً محترقاً يسقط في أحضاني ليُهدأ اللهب او لنشتعل معاً .

قفز الى ذهني بيت من قصيدة يقول (إشتقت للوطن البسائل ولسة ما لاقي الإجابة) تزامناً مع دهشتي , أجل لقد أدهشتني روزبيرأُنثي شرسة جداً صلبة رغم كل هذه المعاناة والرهبة جريئة جداً في قراراتها ومشاعرها وكل شيء حتي في حديثها معي أنا الغريب كانت بمثابة صفعة للواقع

- سيدي أشعر بألم شديد , أظن أنني سألد طفلي الأن ساعدني وبدأت تصرخ ولحسن الحظ أن من بين رواد المقهي طبيبة وإن لم يكن إختصاصها التوليد تعرف ماذا تفعل علي الأقل

روزبير تتمخض الأن ...

الوطن يتألم الأن ...

روزبير ستنجب طفلها ذو الأربعون أباً الأن ... روزبير ممدة علي الرصيف نم نقلها الى المستشفي بعد أن أنجبت طفلها مباشرة وأُخذ الطفل الى الحضانة لكن! .... لم تنتظر روزبير لتراه مرة أخري , لم تكن مستعدة او ربما القدر لم يسمح لها

ماتت روزبير

ماتت روزبير ورحلت الى حياة أخري

لم أكن أعلم بأن مخلفات الحرب يمكن أن تقتل أحداً في المستقبل , لم أكن أدري بأن الأوطان ايضاً تموت هكذا دون مجد , لم أكن أعلم بأن روزبير والحرب والمعاناة سيتشكلون في هيأة هذا الطفل الأسمر

مضي عام ...

وتبنيت الطفل , الذي قلب حياتي رأساً علي عقب إبن السيدة روزبير كانت أُمي سعيدة جداً وأنا ايضاً , متأثرين جداً لما حدث لروزبير

سألتها تري من يشبة هذ الطفل من الأربعون أباً يا أُمي ؟

لم تُجيبني او ربما من الوقاحة أن اسأل مثل هذة الأسئلة مع أنني كنت عفوياً في سؤالي ، وفي المنام حلمت بروزبير جالسة بالقرب مني قائلة:

- هذا الطفل يشبه الوطن الجريح , يشبه الوطن الغارق في الدماء عليك أن تُسميه الكونغو ! هل تعدني ؟
- أعدك سيدتي

سألت نفسي حينها __ ماذا سأقول له عندما يكبر ؟

هل سأخبره الحقيقة أم اخفيها, أخفي عنه حقيقة طاغ اخذ والدته ووطنه وكل شيء جميل يخصه ، يا إلهي, كم يصعب عليّ مواجهة هذا الطفل في مرحلة ما, يبدو أن ضعفي لن يمكنني من تلك اللحظة التي تختبأ في غدٍ ما

توالت الايام والليالي والكونغو يكبر شيئاً فشيء, وبين حين واخر يتساءل عن مصاب أُمه, عن أين هي وكيف ؟ وكلما مرت السنين كانت نبرته اكثر حده وإلحاحه أشد فتكاً الى حدٍ يجعلني ارغب في مصارحته, عزمت حينها أن ألتقي بالعصامية روزبير لتقول لي : هل اخبره ام لا؟

لكن روزبير لم تأتي في مئات المنامات التي كنت انتظرها لتوقظني, لم تأتي او ربما كانت تقصد أن تضعني في تلك الدوامة المتعبة, وأُمي لاتكف عن البكاء عند رؤيتي كئيباً حائراً مُرعباً من مواجهة الكونغو وذات مساء خريفي ممطر ؛ مساء أشبه بذاك المساء الذي التقيت فيه بروزبير غمرتني قوه كبيرة تكفي لدلق الحقيقة على مسامع طفلي, رسمت روزبير على الأرض ثم أردفت:

- هذه والدتك يا الكونغو
- كيف ؟
- في يوماً ما خرجت من العمل غاضباً من كل شيء_ العمل, الركض نحو السراب والإحساس بالوحدة وغيره, أوقفت سيارتي بالقرب من مقهى على الطريق لأحتسي كوباً وأرتب ما بعثره انفعالي اللا مبرر من أشياء تخصني, التقيت بامرأة سمراء يبدو عليها علامات التعب وفي أحشاءها طفل, تحدثنا عن مصابها وتناولنا قهوتنا لكنها كانت تحاول أن تنجب ذاك الطفل أو ربما هو من أصر أن يخرج, أنجبت على ذاك الرصيف ونقلت إلى مستشفى مجاور لكنها لم تنتظر لترى طفلها, لقد ماتت يا بني
- إذاً أنا ذاك الطفل أليس كذلك ؟
- اجل يا بني
- حسنا ولماذا أطلقت عليّ الكونغو ؟

هو بعد أن سمح لعيناه بأن تدمع :

- هي من أسمتك يا بني, ذات حُلم
- لا تبكي يا أبتي, لا تبكي لأني لا زلت احبك

تعانقا ثم أردف الابن :

- أُمي كانت رائعة وحظيت بأب رائع أيضاً وثمة ما هو أروع
- ما هو
- الكونغو في انجولا

17

لصوص أفانوفا

قبل 2700 عام قبل الميلاد اواكثر

مملكة افانوفا

رابوري مقر المملكة, مدينة شيدها الروحانيون القداما بأمر من الملك سيمالو الثاني, المدينة الذي أُطلق عليها مدينة الرب, تقول الاسطورة بأنها مطلية بجلود السحرة الخالدين والحاميين, يتوسطها قصراً ملكي ضخم مقسم الى اجنحة لا يعلم احداً عددها ولا سكانها, المعلومون فقط هم الخدم والجنون المأسورين والسحرة والمتحولون اصحاب الافلاك الستة وآخرون.

قائد الحرس الملكي فاريوريس او الإبن العاق كما يحلو لجيوش افانوفا, يشعل محرقة الظلامية في وادي الموتي مقدماً بعض الاطفال قرباناً لابناء البِن الاسود وفق عهد الاسلاف, حفاظاً على العرش والارض من الهاوناجخام والتي تعني اللعنة بلغة الجِن, لعنة تُدعي ميناو وهي السر الأزلي المنقوش في مخطوطة الأولين من كل اصناف مخلوقات الارض, لعنة ممتدة منذ اول مجزرة في كوكب الارض بين الجنون من جهة والجِن والبِن من جهة اخري.

حامي المملكة وحامل الصولجان (هيهيهو ناامولا) ينذر الملك وقائد الجيش بخطر قادم, حرب لا تصدولا ترد, حرب اللصوص العائدين من اجل المخطوطة والذهب والنساء السمراوات, وروح الملك سيمالو الخامس وريث العرش الرابوري الغزو عند الحامي ليس مجرة تنبؤ او إحراز, لانه يملك قوه ضاربة من السحر وخُدام اللهب, خُدام آلهة النار ساكني كهف المجاسي

قال الملك بعد أن إستدار :

- من هم ايها الحامي ؟ من الذي سيشن حرباً علينا ؟

هيهيهو بصوت جهور :

- الغوغـائيون يـا مـولاي, يريـدون أن تحـل بنـا اللعنـة يريـدون إخفـاء افانوفا من الارض

ميناو, ميناو, ميناو

الملك وعلامات الوجل تبدو جلية على وجهه :

- يـا للهـول, إذهـب ايهـا الحـامي لتسـطلع الامـر جيـداً وخـذ معـك قائـد الجيش فاريوريس

الحامي بعد أنحاءة لجلالته :

- أمرك يا مولاي

الغوغـائيون مجموعـة تمـردت علـى ملـك افانوفـا, تتـألف مـن كـل انـواع المخلوقـات, الجنـون والشـياطين والسـحرة وعلـى رأسـهم رامـالو شـقيق الملـك الـذي نصـب نفسـه ربـاً للشـر بمسـاعدة الروحـانيون البحـارة والقـوادين, رامـالو المنفـي مـن قبـل المملكـة وفـق التقاليـد والاعـراف ، قاتِـل الجـد الاكبـر للعائلـة الملكيـة, بعـد أن تبـرأ منـه نتيجـة افعالـه الشـنيعة وإفتعـال حـروب مـع قـوة مجهولـة يُطلـق عليهـا حـراس افانوفـا الخالـدين الناممبـا ، غـادر الحـامي وقائـد الجـيش وبعـض الجنـود قاصـدين وادي المـوتي, ومـا أن وصـلوا بوابـة الظلاميـة هـاجمهم مجهولـون عرفـوا فيمـا بعـد بـأنهم الشـامراخ وهـي كتيبـة مـن ضـمن كتائـب الغوغـائيون, بنبـالهم وعِصـيهم ممتطـين زئاب تُـدعي زئاب الجحـيم, يخـرج مـن افـواههم لهيبـاً مسـتعر, سـحقوا جميـع الجنـود عـدا الحـامي والقائـد الجـريح إسـتطاع هيهيهـو نـامولا أن يتغلـب علـيهم بواسـطة الـ(بوند) او بـالأدق السحـر الإليمُنـادي, إنهـار مباشـرة بعـد أن نفـذت قـواه تاركـاً فـاريوريس يقاتـل مـا تبقـى مـن اشـباح بنصـله الأثـري الشـيطاني, قائـد شـرس لا يتـواني عـن

قضم جِيد الاعداء بسيفه الغريب ، عادا على بساط سحري الى قصر المملكة, بعد أن خسرا مجموعة فذة من جُند المملكة, لقد تضخم الامر الآن ولن يمرر الغوغائيون هذا الحدث او يصمتون سيردون الصاع بأكثر من صاعين ، صرخ رامالو حتى إهتزت الارض وعرش افانوفا ، صرخة كفيلة بأن تقتلع غابة كثيفة من جزورها, صفع احدهم بالقرب منه ثم اضاف:

- زيكاكا كوالا, خانوط بو شاروط, كثاخا رينافا

تجمعت كل القوات الغوغائية في ساحة شيرا بوادي الموتي, حتى ارواح الموتي نبشت قبورها وإصطفت قبالة الاخرين, ملائلة آلهة الشر ايضاً اخذت مكانها بالقرب من العظيم رامالو, السحرة وكُتاب المخطوطات السحرية, البرابرة وآكلي لحوم البشر شرعوا في سنْ انيابهم

اصدر رامالو صوتاً غريب ثم اردف:

- اليوم نهاية افانوفا وملكها ومملوكها, آن الأوان لنحظي بأرضنا المسلوب من قِبل السيمالويون, اليوم سنهدم مدينة الرب ونأخذ مخطوطة الاولين, سنحرق كل ما جاد به الطريق, ثم صاح

ضاجيري ماجيري, لاليزا هيري

الجنود مرددين:

- ضاجيري ماجيري, لاليزا هيري

فافاجو نجل قائد الجيش فاريوريس يُحب إبنة ممثل البِن في البساط الملكي, الاميرة كيسلين عشيقة الملك ذات الصدر البارز ومؤخرتها المنتفخة كوسادة العرش القطنية, فكرة الإستمناء تقفز الى ذهنه كلما مرت بجواره وفي داخله يدعوها بعاهرة العرش, سمع صراخها اكثر من مره وهي تضاجع صاحب البطن المترهلة, وما زال يعتقد بأنها تصرخ جراء ضخامته

البدنية وارداف الكبيرة لا من ضخامة شيئه, الى ما حد جعله مقتنعاً بفكرة انها ما زالت تحتفظ بغشاء بكارتها,لكنه ليس جريئاً بما يكفي لقطف ثمرة من الحديقة الملكية

قالت له ذات مرة وهي تطبع قُبله عابره على خده :

- سأواصل لعبي مع الملك الى أن تكون رجلاً بما يكفي لتفض بكارتي, اتمني أن لا تكون مثل سيدك

فكرة قتل الملك تبدو منطقية في مخيلة فافاجو على الاقل ليحظي بحبيبته, لكن نقض العهد الذي أبرمه اسلافه القادة امراً قد يؤدي لطامة كبري, قد يفنى قبل مضاجعة كيسلين

الغوغائيون يتجهون صوب افانوفا ...

يعبرون بوابة الظلامية وفي مقدمتهم الزعيم رامالو ليأخذوا الدعم من آلهة الشمس مروراً بمقبرة المتحولون اصحاب الافلاك الستة, شيدوا معسكرهم على بُعد ستون ميلاً من حصون افانوفا, ارسلوا كتيبة من السحرة الذين يمتطون زئاب الجحيم لتقصي الاحوال والطرق تحسباً لأية مكيدة, وإيماناً بقدرات الحامي العنيد هيهيهو الساحر الساهر.

ارسلت افانوفا جيشاً جبار بقيادة الطاغوط المخنث الى غابة كثيفة بالقرب من المدينة بالإضافة الى سكان كواكب الارض الستة, تحت إمرة الحامي دليل الظلام ومستنير العرش, تنبأ الغوغائيون بهذة الخطة, (البوند) كان حاضراً وكافياً لمعرفة ما يخبأه المستقبل, لمعرفة ما سيفعله فاريوريس في اللحظات الاخيرة

كتيبة من حراس افانوفا الخالدين الناممبا وبعض المتحولون اصحاب الافلاك بقيت داخل الحصن بأمر من الملك, الاميرات السمراوات ومجلس النواب نزلوا الى الجزء السفلي من القصر, الملكة ايضاً تملك غرفة محاطة بالحاميين المبتدئين وبعض صعاليك السحر, أيقن الملك بأنها النهاية

الحتمية, نهاية لا بد من أن تأتي لكن ليس في هذا الوقت وعن طريق ذاك العاصي رامالو إله الشر , وفافاجو يبحث عن الاميرة كيسلين بين تلك الاجساد العارية المختبأه داخل القبو الصخري, يبحث عنها ربما ليسرق قُبلة او عناق طفولي يعيد ترتيب الاشياء في ظل تلك الفوضي العارمة

هجم الغوغائيون مملكة الرب من الخلف, معركة أشبه بتلك التي حسمت صراع الجنون مع سكان الارض القداما قبل الإنسان, حرب الشر والشر, حرب من اجل

عرش رابوريا عاصمة الفجور والرجس, حتي الاشباح ساهمت في غزو افانوفا بكل ما تملك من وحشية

شياطين الغوغائي يهتفون : (ميناو , ميناو , ميناو)

شبح الهزيمة يعبث بمخيلة فاريوريس وهو يري جنود افانوفا يتساقطون, يري دمائهم تتطاير في الفراغ راسمة مملكة جديدة أهدت تاجها لرامالو, سمع ضحكته المجلجلة وهو يغرز سيفه في صدر احد وزراء الملك

ثم صرخ : هياهو ساميتا, بلاطا ثاخا

على شجرة ليست ببعيدة لمح حامي المملكة هيهيهو نامولا وقد تجلط دمه, معلقاً من كاحليه وهو ينزف من ثقب ما في رأسه, أشعل احدهم النار في تلك الشجرة ليختفي الحامي او ربما ذهبت روحه الى خاتم إله الشر كما تنص المخطوطة, أُسر الملك وقائد الجيش على أن يقتلا في يوم مقدس, قتلوا كل من في المملكة من جِن وإنس وشياطين الارض والجِن والبِن بل وحتي كتيبة النامبا الخالدة, إلا فافاجو والاميرة كيسلين هربا نحو جزر اللاليلا بعد لعبة مطاردة قاسية مع جيش الغوغائيون, هربا ولكن الى متى ؟

صاح رامالو بعد وضع التاج على رأسه: ميناو , ميناو , ميناو

لقد إنتصرنا يا ابناء وادي الموت, لقد إنتصرنا

- ضاجيري ماجيري, لاليزا هيري

الجنود مرددين :

- ضاجيري ماجيري, لاليزا هيري

بعد مائة عام ...

جاء اليوم المقدس, يوم أن طُرد رامالو إله الشر من مملكة افانوفا, يوم أن تسلم شقيقه مقاليد الامور, يوم أن أسس جبهة الغوغائيون, حكم على الملك المخلوع وقائد جيشه بالقتل على أن يكون التنفيذ بسيف ملكي, نصل الاجداد الموروث على مر السنين والاكوان الستة

العاشقان يتخذان جزر اللالـيلا مخبأ سري لمملكتهما الجديدة, مملكة الحب الخالدة الحب الذي عانى كثيراً في حبو الزمانوصراعه مع الشر, الحب الذي إعتبره القداما قوى سحرية ماورائية تجثو على صدر المخلوقات ناسجة حلقة ضعف تمكن العدو من إستغلالها, كيسلين تحاول كبح الغضب الذي إعترى فافاجو جراء ما حدث لقومه قائلة :

كفاك تهوراً, ما أجمل أن نختلي بالارض وحدنا, قليل من المخلوقات تحظي بهكذا نهاية, دع الماضي وعِش الحاضر فافاجو

فافاجو والدموع تنهمر :

- ليس لي سواك في ذاك الماضي يا كيسلين لكن ما اصاب افانوفا يرهقني, شخص ما بداخلي ينعتني, جزء مني يرغب في الثأر يرغب في أن يعود ليلقن رامالو درساً

كيسلين بعد أن عانقته مؤازرة :

- كف عن هذا الهراء, عودتك لن تعيد الاموات وستكون بمثابة إنتحار لا اكثر, والشيء الأهم أنك لا تملك القوة الكافية لمواجهة إله الشر

هو بعد إبتسامة تنم عن الرضا :

- حسناً, حسناً

حكم الغوغائيون مملكة افانوفا كما تنبأ الآباء الروحانيون, شيدوا مجداً ثوري ليُعلموا ابناء المستقبل معنى أن تقف ضد الظلم, معني أن تقول بملء فمك (لا) حتي وأن لم يتغير الحال فـ ليتغير الجلاد, من المؤسف أن هذا ما سيقوله شعب ما في غياهب الغد, شعباً سيستشهد من اجل اللا شيء, شعباً سيكون إمتداداً للغوغائيون في القرن الثاني والعشرون, شعباً سيقلد مخلوقات عاشت قبل 2700 عام قبل الميلاد

سيصرخ طاغوط اخر في ذاك الشعب :

- ميناو , ميناو , ميناو

18

بكاء العصافير

بثياب متسخة ولحية لم تطالها شفرة حلاقة منذ أشهر طويلة جداً, سحب نفسه من أسفل العربة المصلوبة في منتصف الورشة متجهاً نحو محرك ضخم يقبع محاذياً للمدخل, جلس وهو يشير لتلميذه شرارة نحو حقيبة المعدات ليناوله مفك نجمة ومفتاح عشرة, هو هكذا يتحدث كثيراً حتى عندما يصغي لجهاز الراديو المعلق على السقف, يدندن ويهذى ويشعل بعض لفافات التبغ المشبعة بزيت الراجع, رفع رأسه على صوت طفليه الصغيران وهما يرسلان تحية الصباح التي دائماً ما ينتظرها, ربما هي فقط من تستدعي الحياة وتُشعره بالحب, هي ما تجعل للصباح مذاق بهي, إبتسامة إنتشاء تُطبع على شفتيه المتسختين اللامعتين وهو يسترجع صوتهما في ذاكرته المتسرعة متبادلاً تحيتهما, تحاول يمناه أن تعبث داخل جيب أبرولهِ الأزرق باحثة عن قطع نقدية خبأها مساءً للصغار, يجود لهما بما يكفي وفي مخيلته طعم القبلة التي تطبعها سمر على خده المكسو بالشعر بعد كل لحظة وداع مؤقتة ، ترقبهما إلى أن ذابا وسط الزحام, عاد بعدها لجثة المحرك الألماني الذي يحتضن الأرض, حرص وفتاه على تنظيفها وتجفيفها وتجميعها مرة أخرى إلا أنها رفضت أن تمتثل لعامل بسيط وصبي ساقته خطاه التعبة لمدينة لا تشبه والدته كما إعتقد, بعثرا ذلك المحرك مجدداً, بحث جيداً, لعن الخواجي صانع المحرك أكثر من مرة لعن يداه اللتان بدأتا بالارتجاف, إنه مرض السكر الكافر, نفث سجارتان ثلاثة سجارات, توسط أشلاء المحرك بعد أن عبأ جوفه بمنقوع السُترني ليخفف من ضربات الشمس ونوبات السكر حسب الأسطورة السائده هنا في أرض تتعدد فيها الأساطير, تأمل بدقة شكل ما من أشكال

المحـرك المخروطـي , ضـحك, ضـحك بصـوت عـالٍ جـداً صـارخاً لفتـاه بعـد أن أصلح العطب مضيفاً:

- الخواجي دقس, تعال تعال جمع المكنة

تمـدد بمحاذاتـه شـيخاً منتصـراً, وكأنـه فـرغ لتـوه مـن إكتشـاف مصـلٍ للمـسْ أو عقـاراً للهلوسـة, أشـعل سـجارة أخـرى مترقبـاً شـرارة وهـو يجمـع الأشـلاء بمهـارة فائقـة قفـزت سـمر علـى ظهـره وهـو يسـترق النظـر إلـى اداء تلميـذه, طوقـت يـداها الصـغيرتين النـاعمتين حـول خصـره ضـاحكة ببـراءة, إحـدى خصـلها عبـرت نحـو وجهـه, هـي طقـوس غريبـة جميلـة يقيمانهـا كـل مسـاء, طقـوس حـب يخصـهما, هـرب بهـا نحـو المنـزل, أخـذ يـدور بهـا, طاردتهمـا زوجتـه سـت النسـاء, سـمر تصـدر ضـجيجاً عارمـاً, هـي هكـذا عنـدما تصـل أقصـي لحظـات الفـرح, أقصـي طقـوس العشـق, تركهـا هنـاك عائـداً إلـى العمـل بعـد وعـداً تعـود علـى قطعه كل مساء الحلويات

إتكـأ علـى كرسـي قـديم, أرسـل مخيلتـه بعيـداً حيـث لـن يقاسـمه أحـد تلـك الحروب التي على كل من في الأرض أن يخوضها وحده, سأل نفسه حينها

- كيـف سـتكون الحيـاة إن فاضـت الـروح إلـى بارئهـا, كيـف سـتُعيل سـت النسـاء نفسـها وأطفالهـا, كيـف يـا تُـرى ؟ , أخـاف أن تـأكلهم العتمـة والكـلاب الضـالة, ربمـا كـان مـن الخطـأ أن يتجـرأ عجـوزاً مثلـي علـى الزواج, وربما أنني ورثت هذا الخطأ أباً عن جد, يا إلهي

نـادى فتـاه بنبـرة حـزن عميقـة ومقلتـان مليئتـان بـدمع خفيـف ثقيـل, ربـت علـى كتفه وكأنه يفترض في نفسه أن شرارة هو البديل

شراراة مدفوعاً بفضول التلميذ الفطن,:

- لماذا تبكي يا معلم

- لا عليك يا بني, جميعنا في وقت ما نحتاج لأن نبكي, حتى العصافير تحتاج ذلك
- هل هناك ما تود أن تُخبرني به
- ربما, سأخبرك إن أحتجت ذلك

أغلقا المحل قاصدان المنزل بعد أن مرا على مجاهد بائع الحلويات, والذي كان يُلقب لسبب ما مجاهد شيخ لوط, لم تبارح مخيلة شرارة دموع معلمه ووهنه تمنى لو أنه كبير بما يكفي ليستطيع مواساته, ولجا المنزل ــ هرولت سمر كالعادة صوب والدها وصوب وصاياها, حملها بكل حب على كتفيه راجلاً بها نحو سرير يتوسط المنزل بعد أن ألقى التحية على زوجته وطفله ياسر عابثاً شعر رأسه, طفله الذي يدعوه دائماً أخي, ربما لفقدانه إحساس الأخوه ، صلى العشاء برفقة شرارة وإنسحب كلٍ منهما إلى فراشة بهمومهم, شرارة الصغير وهو ينقب عقله الصغير باحثاً عن طريقة ما تجعله صديقاً لمعلمه ليقاسمه حزنه وحاج الغالي وهو ينهش نفسه خوفاً على الصغار من دونه .

أشرقت الشمس, غيوم جميلة نصبتها السماء على ذاتها, غيوم تتحرك على هيئة أسراب كما الطيور الراحلة, عصفور مطلي بألون عدة بدأ يغني وكأن هذا يوم ميلاده, سمر أول من تستيقظ وبدورها توقظ الأخرين, تأتي والدها ليرتب خصلات شعرها الليلي الأنيق, أخذت مصروفها هذه المرة من البيت مباشرة, طبعت قبلة دافئة على وجهه ورحلت ، أستيقظ الجميع, أقاموا طقوس الصباح ككل مخلوقات الأرض, ملأت ست النساء حافظة الأكل خاصة زوجها ثم تفرغت لمنزلها المتواضع, خرجا كالعادة لكسب رزقهما, يتبادلان الدعابات, يضحكان, تزامناً مع صراخ أحدهم :

- يا حاج الغالي, ياااا حااج الغاااالي
- مالك, مالك في شنو يا ولدي

- بتك سمر
- مالها, مالها
- ضربتها عربية

صدمة قوية إعترته, صدمة أخلت بتوازنه المختل منذ البداية, شعر بأن قلبه توقف بل جميع قلوبه التي تعلقت بسمر توقفت للتو, هرول ومن خلفه شرارة حيث مكان الفاجعة, سمر قطعة لحم حمراء مفترشة ذلك الرصيف القاسي, بكامل برائتها وزهوها الطفولي, بحقيبتها المدرسية وزمزميتها الصفراء, جلس على ركبتيه الهزيلتين, دموع دافئة تخللت خداه حتى أسفل شفتاه المرتجفتين, عانقها بأبوه مفرطة وصرخات إختصر فيها كل ألم إختزنه, ست النساء دخلت في نوبة بكاء عالية, بكت حتى غادرها صوتها الحزين, ماتت سمر, مات كل شئ جميل كانا يعيشان لأجله, وكأن السماء إختصرت معاناة البؤساء فيهما, سمر آخر الأسباب التي تدفع حاج الغالي للتنفس, للضحك, للفرح وللبكاء أيضاً

شرارة ينفجر أيضاً ليبكي كل لحظات الفقد الطويل, ليبكيهم جميعاً, والده ووالدته وسمر, هو يبكي تلك الخمسة عشر عاماً الماضية الآن, ربما كان في إنتظار فرصة ما ليبكي لكن ليست فرصة تأخذ سمر للأبد, تذكر حديث معلمه ذلك اليوم:

- جميعنا في وقت ما نحتاج لأن نبكي, حتى العصافير تحتاج ذلك!

شعور سئ ينتابك وأنت تودع ذاتك التي تعرفها جيداً, إستفاق حاج الغالي من غيبوبته وملامح الحزن تكسو تجاعيده الشائخة, تناول بيسراه دفتر رسم صغير من على منضدة خشبية تعود لأكثر من ثلاثون عاماً, تنقل بعيناه الجاحظتين, تنقل بسبابته المرتجفة بين الرسومات الفوضوية وأشكال الخطوط الملتوية الملونة, رسمت سمر ماضيها وحاضرها ومستقبلها, دموع عابرة تمتزج مع خطوط قلم الرصاص المحشوة بحنان

عميق داخل الصفحات, شرارة بلغة حزينة يخبر معلمه برغبته في الذهاب إلى الورشة حيث أن الفقراء لا يتوقفون عن العمل لا يتوقفون عن الركض الطويل المستمر, هم هكذا دائماً عند المرض والحرب يدقون أبواب العدم الموصد بإلحاح يدفعه الإحتياج, لم يعيره حاج الغالي إهتمام أو ربما بات الأمر لا يخصه, بخطى متباطئة رحل شرارة صوب الورشة معتبراً صمت معلمه قبول كما هو شائع, تارة يحزن لما ألمْ بأسرة حاج الغالي وتارة أخري يلوم نفسه على إلتحاقة بهذه الأسرة الجميلة قائلاً:

- ربما ستكون الأمور أفضل لو لم ألتقي بمعلمي, ربما لعنة والداي وجدتي وجدي يطاردانني, الموت يتربص بمن حولي, يتربص بكل الذين أكترث لأمرهم, لكن لماذا ليس أنا!

أشرع أبواب الورشة في محاولة بائسة لتناسي ما بدأه من أساطير دون جدوى وكلما أصرْ على ذلك تملكه الأمر أكثر حد الإستيطان, قال في نفسه بعد أن أخذ شهقة طويلة :

- سأغادرهم قبل أن تلحق بهم اللعنة سأرحل بعيداً عنهم,

أمن على فكرته تلك وعاد إلى عمله المضني وفي المساء الحزين حمل مؤونة اليوم المعتادة إلى المنزل, ألقى التحية على ست النساء ودون أن ينتظر الرد وضع ما بين يديه وإستدار نحو معلمه الذي ما زال يعانق دفتر الرسم بشكل ملائكي, لبرهة أيقن أن فكرة إخباره بالأمر ليس مثالياً فقط عليه أن ينسحب دون إحداث جلبة, لكنه يخاف أيضاً ندم حاج الغالي على تربية يتيم مشرد هرب بعد أن إخضر عوده لتستمر لعنته بدورها في محو آثار الرحمة من قلبه, خياران إختار أصعبهما سحب نفسه ومضى نحو المجهول وما أن وصل تلك المدينة المجهولة أيضاً إنزوى وأخذ يبكي متذكراً حديث معلمه : جميعنا في وقت ما نحتاج لأن نبكي, حتى العصافير تحتاج ذلك!

19

موسم الجوافة

هي فقط من تجعلني أمتهن طفولتي, طفولتي الهاربة, تجعلني أتذكر بشراهة كل شيء جميلاً أو سيئاً إحتفظت به في ذاكراتها, مسجي هناك كأسير أزمنة غابرة تليدة ومخطوف الوجه, خالى إلا منها الذي أعرفه جيداً ودون محاولات جادة أفرغتها لتتلبسني مجدداً, لذة عارمة تعتري الجزء الحر منّا تقاوم عبرنا عبودية الذاكرة وضخامة الأغلال فيها وأزلية الحزن, وعلى ناصية أقرب لأحضان أمي أختبأ, أراقب وأهتف, ناصية نتبادل معها حوجة الإتكاء لأننا مُرغمين على إغاثة بعضنا دفء وصلابة بعضنا, هي لذة مسحورة مسكونة منبوذة وأنا سجين قوسين في نص لم ينضج بعد, كما هي وكما هم جميعاً أسرى الوقت والأشياء وسجناء البراح الحر والأفق البعيد

في صباح شتوي جعل حتى الأرصفة تتلوى في محاولة يائسة لإحتضان الشوراع الهاربة, أيادي المارة تسكن جيوب معاطفهم الدافئة, برودة قارصة تتلاشى شيء فشيء, هي أوقات رائعة للتسكع خارج البيت والتحملق في إنكماش الأشياء أو كما يقول صديقي إبراهام بأنها لحظة ضعف تستدعي إلتقاء الرب داخل عظامنا, لم أكن أعلم الكثير عن ما يقصده لكن لسبب أعرفه أوافقه, إفتعلتُ شجاراً خفيفاً مع رفيقنا يوسف الذي يتقمص دور البغبغاء أثناء نومه في صباح كهذا ليفسد قدسيته هو هكذا دائماً لا يهتم, لعناه معاً مغادران إلى حيث نستطيع أن نجد السلام أو بمعنى أكثر دقة بعض الهدوء, كأن نتناول حساء ما في مكان ما أو أن نتمشى على أنقاض المدينة التي أضحت مدينتنا الآن كما نعتقد, مدينة حرصت على تعليمنا كل دروس الحياة مدينة تلعننا ونلعناها, تضحكنا ونضحكها, مدينة أصبحت مع الوقت أم أخرى طيبة وشريرة في آن واحد, مررنا كالعادة

بمقهي حامد تدفعنا الرغبة في إستنشاق القهوة, لا أعرف سر جمالية القهوة في مواسم الجوافة ربما إمتزاج مرارة الإخفاق مع لذة المرحلة هي ما تستوفي تلك المتعة اللعينة, وجدنا كل الذين إستدعيناهم في مخيلتنا موجودين هناك لا ينقصهم إصبع قدم أو يد, حتى منتصر الفيل كان حاضراً بأقصى بهاءه ووجهه الصبوح الضاحك, إبراهيم أيضاً قادم في زهو بعد أن أعطى القهوجي قائمة الطلبات القصيرة, تبادلنا تحايانا الحارة الخاصة بعيداً عن حقيقة الطقس الصاخب, ضحكنا, إحتسينا ما أمكننا إحتساؤه, تناقشنا بصورة عبثية عن موسم الجوافة المزعوم عن المواد المشتركة وطرق تقسيمها وفق الأيام المتاحة, وبعد جدل طويل إنفض الجميع إلى حيث يجب أن يكونوا, إبراهام في محاولة لنصب فخ محكم للحظ السيء الذي يطارده قال لي بعد أن إستدار ليتأكد من شيء لا أعرفه ولم يشاطرني إياه:

- سأنتصر هذه المرة

لم أعر تصريحه أيّ إهتمام, هي عادتي لا أكترث لأني لست الشخص المنوط بذلك وصلنا منزلنا الصغير في وسط حي الرديف المشهور بكيميائيته منذ عقود طويلة وبالرغم من السوء الذي يكتنف المكان شعرنا نحوه بانتماء حقيقي ربما لأننا من أماكن مشابهة أو لشعبية الأشياء فينا, يوسف ما زال متكأ على فراش يتوسط الغرفة الكبيرة الواحدة التي تسعنا جميعاً بكل حماقاتنا وحقائبنا وترهاتنا, أغنية لمحمد النصري تقفز من هاتفه الملقى على الأرض, على الأرض هنا تعني على التراب لأن جميعنا على الأرض بلا أسِرة بلا مناضد وبلا كراسي أيضاً, ركله إبراهام في إشارة منه لعدم المسؤلية, تشاجرا تناكفا صرخا كالعادة ثم أردف إبراهام:

- تجهز لنذهب إلى الفطار يا ماسورة

في السابعة مساء وبعد أن هاتفني صديقي فنِيّ لنلحق بهم في منزل صديقنا حمد لإفتعال مراجعة جماعية تدفع بنا إلى بر الأمان, هي محاولة

لترميم ثقوب الذاكرة التي مزقها الفراغ الطويل, نتمدد قبالة مكيف الماء الصغير,نتبادل الأسئلة الأجوبة السجائر وأكياس التبغ وأحياناً المزاح الثقيل الجميل نوعاً ما, ينتابنا نوع من الفزع المبهم والحزن الكاسح جراء أشياء لم تحدث, هي احاسيس لازمتنا طول السنوات التي قضيناها هناك, خوف الإخفاق والعبور وخوف آخر أشد لعنة ,عاماً آخر من التشرد والتبلد والفتة كما قال أحدهم, كنا حريصين على أن نكون معاً في مرحلة قادمة ومنعطف جديد, وكعادتنا جميعاً لا ننام حتى نجهز على كل توقعاتنا وإمتحاناتنا القديمة وما يرشحه البعض هي لحظة نصاب فيها جميعاً بالرغبة في القفز والتحليق عن إحتمال السقوط في فخ نسجناه ذات سيمستر, في الصباح نتوجه بزهو حيث يجب أن نكون, تعلو ملامحنا تجاعيد التعب والإرهاق المستمر وبعد خروجنا مباشرة من الحرم الجامعي تأخذنا خطواتنا بقصد أو دون قصد إلى مقهى العم حامد, حامد بائع البهجة أو بالأدق الكافين اللذيذ, نجتمع مفترقين كلٍ منا داخل كوب معتق يسافر عبره إلى عوالم تخصه وحده,صمت يسبق ضجيجنا المؤكد ونبقى في ذات الدوامة طوال موسم الجوافة

موسم الجوافة جامع الأحباء كما يقول المثل:

ـ إن كنتم أصدقاء حقاً ستلتقون في موسم الجوافة

مرّ الوقت سريعاً كإعصار خبيث, مضي الموسم كالمعتاد ومضينا نحن إيضاً إلى اعشاشنا وإلى احضان أوطاننا الصغيرة, وفي جيوبنا تذاكر عودة حتمية إلى ما نسميه البيت المسكون, إجازة قصيرة نحظى فيها بنوع من السلام المغاير للسلام الذي كُنا نعيشه, بوجبات نظيفة وإسترخاء تام وربما بجنون أقل, تتناقل الهواتف اخبار بعضنا ومستجداتها وفجأة نجد انفسنا في لبْ المكان الذي هربنا منه بصورة مؤقتة لخوض عام أخر مليء بالإثارة والمعاناة, نتبادل عناق مغشوش وإبتسامات حقيقية من اعماقنا نجدد ملامسة الأمكنة التي لم يطول غيابنا عنها نستنشق روائحنا القديمة

في بعضنا ونشرع في نسج خطط تقودنا بكل أريحية, خطط لا تنجدنا, نحن نعلم ذلك ولكن حتى للفشل خطة لكي لا يكون فشلاً زريعاً ، أو كما يقول المثل:

"إذا لم تستطيع منع نفسك من السقوط حاول أن تسقط بطريقة أخف ضرراً"

في منتصف مميت, منتصف العام, منتصف الشهر, منتصف الشارع, وكل منتصفات الأشياء هنا مرهقة جداً إذ تذهب النقود ادراج الرياح ويظهر الفلاسفة الذين يقطنون في جزء ما بداخلنا, تتوتر علاقاتنا مع كل سكان البسيطة تقريباً حتى نحن الآخرين الملزمين على مواساة ذاتنا, حيث لا مخرج لك سوى مدى عمق علاقتك مع إدريس البقال هو إختبار حقيقي للصبر والتقشف بأبهى صوره , تشرد لذيذ خاصة عندما يعبر عنه صديقي خالد بضحكة مجلجلة تحمل في طياتها ألم ممتع يزول مع أول مائة جنيه يستقران في حيب ما بالقرب من مؤخرتك, تغير ملامح الحياة وشكل المستقبل بل وتُعيد إليك آمالك وكبريائك وكل شيء أوشك على التلاشي, هي لحظة تستدعي المرح فالفقراء لا يأبهون لما بعد الموجود حتى يجدون أنفسهم على أبواب العدم, أو ربما بوجه آخر للمعادلة (الفلس المدقع), حينها يبدأ شاعر صغير بداخلي في رسم لوحات جمالية عدة لوحة الفقد والإحتياج والسفر عبر الكلمات إلى مدن بعيدة جداً عن فكرة الوصول, يسافر فقط دون تعاليم وفي كل المحطات المثلجة يجد وجه أمه غطاء صوفي يحيل بينه وبين برودة تلك المدن التي لا تبدو مكاناً مثالياً للغرباء, لا تبدو كما نعتقد أو كما تعتقد مخيلتنا التي تمارس الترحال دائماً, ونعود مرة أخرى على إيقاع الجيوب الفارغة وموسيقي العدم لفتح مسارات ذات حلول وهمية, كأن تبحث عنك في حقيبتك المركونة علك تجد شيئاً يدفعك نحو ما ترغب, في حالات مماثلة عادة ما أسحب نفسي إلى كلية الهندسة جامعة الإمام المهدي لأتركني هناك بين زحمة البشر وأفكارهم, بين مقعد ومقعد وزقاق وزقاق, بين أركان النقاش وهدوء المكتبة, أقسمني

بصورة أو بأخرى على تلك الأمكنة وأهرب تاركاً إياي المجزء ريثما أجد مخرج

أو كما يقول المثل:

- "الشيء الأسوء من الوقوع في المشاكل, التأقلم معها " وهذا ما كنا نفعله على أكمل وجه

في نهاية العام وبعد أن أنفقنا آخر ذرة قوة في بحث التخرج, مرحلة كنا على يقين بمجيئها, كان عليها أن تحدث لتنتشلنا من سفسطائية الأشياء أو على الأقل من القاع وعبثيته, منتصر الكبير أيضاً فرح كثيراً لأجل الجميع ولأجله بصورة خاصة, ربما لأن خروجنا من هناك لم يتكفل به البحث المسروق وحده كما قال فني بل حتى لذلك المختل الذي كان بيننا دور توفيقي من جهة إلهية أحمدها جداً وكذلك لجار صديقي منتصر مساعد التدريس الفاسد الذي كان من الممكن أن نغرق من دون أسئلته السلسة المتعمدة على الأرجح, أشكرهم جميعاً بصورة مرحلية سابقة لن أفعلها الآن لو تجددت الأحداث, والشكر الأقرب للعناق أحتفظ به لإنتصار بائعة الشاي التي ما زالت تحتفظ بكراسة الجارورة اللعينة وحدث ما حدث, أمر ممتع للغاية أن تجتر معاناة الماضي بتلذذ حقيقي وإشتياق مهول لكل لحظات اليأس والحنين, ربما لأنها أقل سوءً من حياتي ما قبل ولوج تلك المدينة السحرية بلا شك, تلك المدينة التي أضافت أكثر من ما حذفت وأعطت أكثر من ما أخذت

أو كما يقول المثل:

- " المدينة أُنثي أيضاً, عليك أن تفهمها أو تطلب النجدة"

عليك أن تتحلى ببعضاً من الشجاعة والخيال الخصب لتتعايش مع تلك الأنثى المتقلبة بطبيعة النوع ربما, كأن تتجرد منك الذي يؤلمك لفترة أطول ما أمكن أو أن تواجهها بطريقتك, وإياك أن تستخدم طبيعتك

الذكورية ضدها وإلا ستجد نفسك ذليلاً محاطاً بالرعب, كعشرات الأصدقاء الذين هربوا من هناك مستنجدين ولكن كان من الأفضل أن يستمروا أو أن يبتكروا اسلوباً على مقاسهم, حيث الفرصة لا تأتي مرتين في حياة واحدة, أو ربما نحن لم نمر بتجربة مماثلة لنحدد صواب أو خطأ ما إتخذوه, إنتقلنا كعادتنا إلى حي الحلة الجديدة هي رحلة تنقل طويلة جداً دون إستقرار نسبي, تتبعنا ذاكرة ملّت منهجية التأقلم الناقص وإصطحاب أشيائها القديمة إلى سكن جديد, ليست مصادفة أن نصل مع رمضان شهر التوبة والغفران لنبدأ معه الجلوس هناك, الفرق بيننا أنه لا يدفع الإيجار, لأكون صريحاً هو ضيف غير مرحب به في ظروف أفضل ما يقال عنها سيئة وقل ما يحظى بمعجبين, أو كما يقول إبراهام ممازحاً:

- ربما الصوم في مثل هذه الظروف هي التهلكة التي يقصدها الرب

20

ليس بيننا ما يستدعي البكاء

هكذا ومنذ التلاشي الأول لأكذوبة البقاء, منذ إنسدال ستائر الغرفة الرمادية وإختباء منزلنا الصغير في حقيبة أبي الدبلوماسية, منذ أن إكتشفت نضجي وإنتصاب ما يفترض أن ينتصب من جسدي الطفولى, منذ ان اهدتني قُبلة مطوية داخل رسالة النسيان تلك, حينها لم أتذكر حوجتي لأن أبكي أو لأصرخ لم أتذكر رغبتي في إحتضان الفراغ الباهت والنحيب, لا تكترثي لذلك لا تكترثي لبقاياىّ الممزقة التي تدوسينها وانت ترقصين لا تكترثي بتاتاً لتأوهاتي ودمي المبعثر على كل الأمكنة التي ترتادينها ولا ترتادينها, لا تثقي في تزمر المارة أو عيناكِ فكل ما يحدث أسفل قدميكِ لا يخصك أو ينتمي إليكِ فليس بيننا ما يستدعي البكاء, رائحة الموت الشهي تكتنز المكان " الأرض والبحر والجو والسماء والقبور والكهوف " شيخ القرية ممسكاً بمهبل أصغر زوجاته المسنات ربما ليدخل هناك لكي لا تتلبسه روح الجني الذي يزعم الجميع عدا قاتلتي بأنه يسكنني, سحرة القرية كتبوا ملاحظاتهم وأقاموا طقوسهم, قوس الدخان اللئيم يزحف نحو كل شيء حتى ذلك الفراغ الذي بين محفظة جدتي الخرساء ودبوس إغلاقه, وقبل أن "يفكوا" طلاسيم الأشياء ماتوا وهلكوا, ربما خنقتهم رائحة القرنفل وخشب الجخجخ اللذان ينبعثات من المقود الطيني, حبيبتي التي تشبه الجميع ولا يشبهها أحد هي أقرب للحظة ما قبل الوصول وما بعد التحرك, لم تتحدث في لقائنا الأخير ولم تبكي كمُسَلمات كل الحالات المماثلة, لم تقول ما يجول في خاطرها الحزين, كلانا يدري بعدم وجود اسباب بعينها تقودنا نحو الفراق كلانا يعلم مسبقاً بأن الحب لا يموت فينا بل بإمكانه أن يتحول إلى شبح يقتلنا ببطء أو يُسقط كل أُنثيات الأشياء من نظري, نظري الذي لا يحوي لسان سحري يتذوق لذة

الألـم ، دسسـتُ الفـراغ كلـه فـي حقيبـة اليـد خاصـتها متحسسـاً إمـتلاءه الأبـدي ومتـأملاً بدايـة الأشـياء مـن طـين الحبيبـة, مترقبـاً أشـكال الحيـاه وهـي تصـبغ نفسـها بعلبـة المكيـاج الصـينية, المنتـوج الصـيني الـذي إرتـبط بالفشـل فـي وجـدان الشـعوب التـي أنتمـي إليهـا بصـورة أو بـأخرى, حينهـا كـان اللـون الأسـود فقـط مـا يلمـع الأسـود القـاتم يتـربص بكـل الألـوان طاغيـاً علـى طريقتـه, الأسـود اللـون السياسـي كمـا قـال صـديقي (شـطة) لـم أهضـم فكـرة أن تولـد الأشـياء ميتـه مـن رحـم الحقيبـة المكتظـة بالحيـاة ومنتشـية بـأريج الأمـل النسـبي, هـي لحظـة اقـرب لإنتشـال روحـك الشـقية منـك, أشـبه بتمزيـق مـا نسـجته فـي مخيلتـك مـن مناديـل وهـدايا وكـل مـا لا يسـتدعي البكـاء, قالـت بعد أن قدمت لي جنائزي وبعض القبور الصغيرة:

- أجهضتُ كل شيء, كل شيء كان الممكن أن يكون

إعترتنـي صـدمة أعـادت ترتيـب الكـون والأشـياء داخلـي, أعـادت إنتـاج رغبـاتي البريئـة ومقتضـاه أن لا تتفاجـأ أبـداً, تـذكرت نصـيحة والـدي نصـيحة مـن ماضـي أغبر أسمر كان مضمونها:

- لا تعشـق بشـراهة وعنفـوان يـا بنـي ولا تـراهن بكـل مـا تملـك, الشـخوص ليسـوا تجسـيداً للملكـوت والأشـياء أيضـاً وإلا سـتُقتل, فـالموت مصـير محتـوم إذا مـا سـقطت فـي فـخ مماثـل يـا بنـي, صـدقني ستتهشـم كـأيّ مـرآة سـلمت نفسـها لطفـل لعـوب يسـتمتع بالأصـوات التـي يُصـدرها الإرتطام

تـذكرت حينهـا خيـال إمـرأة كانـت تـأتي مسـاءً لصـبي يشـبهني, تـأتي إليـه غيـر آبهـة بجمـوع الأطفـال الصـغار وظـل المطـبخ الممـتلأ بنسـوة الحـي وهـن يتبـادلن الحـديث وفنـاجين القهـوة البيضـاء, فـي زاويـة بـالقرب مـن الجميـع حيـث تمـارس بعضـهن المشـاط, تجلـس جارتنـا مـريم لتمـتهن دورهـا فـي قـراءة الفنـاجين هـي صـاحبة أبشـع الأكاذيـب التـي تعـرض لهـا عقـل طفـل بعمـري, ربمـا هـي فقـط مـن إسـتدرجت تحفظـي حيـال الأنبـاء فـي المسـتقبل, تـأتي

لتهمس في إذني أمام الجميع متخذة هيئة العديد من اللواتي يجلسن على مائدة القهوة التقليدية مضيفة بعد كل إبتسامة صفراء _ ألا تشتهيني, ألا تشتهي شيئاً من هذه الأجساد المتناثرة أمامك, هي تستفزني دائماً وتوقظ أشباح أشياء لم تكتمل في حقيقتها توقظ رغبة رجل لم أكونه بعد, ثم تختفي بعد أن تطبع قُبلة على خدي قُبله لن ولم يستطيع عقلي الصغير تصنيفها وتتلاشى مترقبة ذهولي, رعبي, عرقي المتصبب ومخيلتي المنتصبة, هي هكذا تملأني منذ الصغر بطيشها البدوي وتصوراتها التي تفتك بي, تلك المرأه هي نفسها أنثى المقود التي قتلت السحرة الذين تجمعوا لإنقاذي هي نفسها التي إعتلت خيط دخان القرنفل وخشب الجخجخ بسطوها المستبد وحسمت صراع الآخرين مع الجني الذي يسكنني كما يحلو لهم, ها هو الصبي الذي ربما تلبسته رجلاً ليس سوياً رجلاً خرجت تصرفاته عن إرادته لكن ليس بالدرجة التي تُحتم علينا أن نُطلق عليه مجنوناً بالمعنى السوقي للجنون, على الأقل الآن ، قاتلتي الرحيمة تثير شهوة السلفي الذي بداخلي وتزعزع إتزانه, وتنتزع وقاره المخبأ أسفل لحيته الطويله, كانت كلما رغبت في العبث برجلاً تلحق بفارسها الذي إقتنته منذ الصغر, منذ الأبد الأول, وذات قهوة عابرة مع مقاهي القضيب المحازي للسكك الحديدية, وحدي كنت جالس هناك أسبح فيني متسامراً معي الآخر وحدي أتفقد كل شيء يخصني ولا يخصني, كل الأشياء تبدو ضدي حتى أنا ضدي بكل الزوايا, ها هي الشوارع أيضاً ممددة بالقرب من المقهى العتيق مختبأة من الجدران الذي لا يستمتع إلا وهو متكأ عليها, الشوارع مثلي تماماً تُرهقها الظلال وتستعبدها خطاوى البشر المُثقلين بالوجع كل هذه الأوزان الفائضة تتحملها الأرض في شخص الشوارع, حتى نحن عندما تضيق بنا الأماكن نذهب إلى الشوارع, البيوت عندما تمتلأ تتمدد على الشوارع, النيل عندما يفيض يلجلأ إلى الشوارع والشوارع عندما تهرب تدخل في ذتها, لهذا هي من أروع بيوت الله هي أكثر قُدسية من تلك المنازل الأسفلتية المزينة بالصواعق الكهربائية,حتى حبيبتي تتخذ من

حين لآخر شكل شارع المدينة الرئيسي لتوفر براحاً كبير نتسكع فيه نحن والبشر وابناء آدم وبقية الشوارع الصغيرة, بينما أحتسي قهوتي داهمني شخص بداخلي شخص أعرفه جيداً لأننا نلتقي في ظروف وأماكن مماثلة, كان يقول لي:

- ما يحدث الآن يا صديقي يستدعي البكاء,

فأتجاهلة عائداً إليّ وإلى سيارة الإسعاف التي إصطدمت بالقطار لتوها, هرولت كالجميع نحوها هرولت لا لشيء سوى أن سجيتي كإنسان تدفعني لنجدة الضحايا, كانا عروسين خرجا للتو من مركز التصوير كما هو شائع, عروسين جميلين صغيرين, ما زالت إبتسامات المدعوين متناثرة حول المقاعد, سحبنا جسداهما الممزق والملتصق مع حديد السيارة اللعينة, قال الزوج وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة (أخبروا أمي أن لا تبكي) هذا فقط ما كان يتمتم به إلى أن رد أمانته التي على الجميع ردها بشكل أو بآخر, بقطار أو رصاصة بقذيفة هاون أو ممارسة الجنس في أسطح المنازل, كلنا سنردها حتى حبيبتي التي تطارد الأشياء عبري ستفعل ذلك ذات يوم

هبط المساء الأنيق, هبط ليرمم ما إفتعلته الحبيبة من شروخ وندوب, هو الآن لم يأتي وحده لم يأتي ملتزماً بتلك الوعود التي قطعناها ذات ليلة, ولم يعد مهتماً بمن يصطحبه في مشوارة اللذيذ, لقد أتى مع محبوبتي الشبح محبوبتي الساذجة والمقيتة في الوقت نفسه, ليس هناك ما يستدعي وجودها بيننا لكن هي هكذا منذ أن إعتلت مخيلتي شكل الأنثى أو بصورة أكثر دقة صراع الجسد ولذته الطبيعية, هو شيء ممتد لا يمت لمنطق الأشياء بصلة, كأن يستيقظ (الدليب) من جوف الأرض (هلوكاً) ذو طعم لذيذ رقيق, لا أندهش جراء خروجها الصادم من جلباب المساء لا أندهش من إنقضاضها على لقائنا الدوري معه لتقول لي كل ما حدث وما سيحدث وما لن يحدث لا يستدعي البكاء

21

مساحيق لا تخص النساء

من أين لهذا الليل كل هذة الظلمة الفاحشة, من أين له كل هذا الجموح السائب, الدموع البائسة, البطش الفائض والصراخ, الليل الأسود دونما مساحيق هو نفسه مجموعة من المساحيق المعتمة القاتمة, الليل الذي لا يخشى فرقعة الأصابع التي تستأذن الرحيل, الأسِرة اللولبية, بقايا شخير, صفير الرياح والظلال المجازية للأموات, الليل لا يخشى شيئاً, هو أسمى وقت للتوجس والإنفتاح وأبشع وقت للإنخراط في التفاضل, حينها تُشرع أنثيات الأشياء حصونها, تستفز وتبتذل, هي كل ما يكفي لإستثارة اعتدال الأشياء, الليل راهباً أيضاً, شيخاً عجوز وطفلاً وليد, كهلاً ومضغة في آن واحد.

الليل قلنسوة وفراغ كبير من العتمة وجدار مطلي بالسواد, لا نرى فيه شيئاً سوانا نتحسس حينها عظمة الملكوت ونبدو كما خُلقنا عرايا تماماً من لحظة الوجود الأولى, الليل هكذا يتسلل داخلنا لينتشلنا من الضوء الساطع كجسد المرآة ولنعود بذاكرة متسرعة حتى نستقر مرة أخرى بمخيلة القدر ونخضع شئنا أم أبينا لقوه ماورائية نتفق في وجودها نختلف في طبيعة الوصول إليها, ففي الليل يُقيم الغرباء عزاءهم , مزيج من الفقد والحنين والإنغماس في الذكرة, هو عزاء لا يشبهه تأبين كأن ترحل باقياً, الغرباء يشرعون في العودة قبل رحيلهم, يصطحبون معهم امكنتهم التي يحبونها, وجوه اصدقائهم, يحزمون حتى شكل العناق الأخير لأمهاتهم, هم عجازون تائهون لأنهم بمثابة أبواب لم تستطيع أن تتحرر من الأشجار العملاقة, هم هكذا يصطحبون كل شيء عدا هم, يستعيدون الممكن من مخيلتهم ويصنعون من الغبار طوق يتلاشى عند نهاية الطريق والفراغ أيضاً

ليس هناك أبشع من أن تتسائل عن من طوى الطريق خلفك, من كنس البساط المجازي,على الأرجح من فعل ذلك لا يريد أن يحتفظ بتلك

الخطاوي, لا يرغب في أن يعود الغرباء مجدداً لأماكن تبدو باهتة بالنسبة لهم مشعة ساطعة بالنسبة للغرباء, ففي وقت ما عليك إستيعاب أن الأمر كله ضدك منذ البداية وعليك أن تستمر لأننا بطريقة أو بأخرى نحارب لأجلنا ولأجل سجيتنا كإنس, تفقد غابريال مصطافي محفظته الجلدية الصغيرة متخطياً رغبة السفر نحو الأماكن التي جاء منها, تفقد تلك الصور الصغيرة التي إلتصقت ببعضها لتشكل مزيج إجتماعي من ألونها المتعددة, إتخذت هيئة أسرة تسكن محفظته, بنظرات متسرعة حزينة تنقل بينها ليجد نفسه أيضاً بكامل براءته الطفولية, صرخ كُل ما إختزنه من ألم وفقد وبُعد, صرخة في الحقيقة عدة صرخات مجتمعة في نوبة واحدة, تخيل والده يتمشى معه على الرصيف يمازحه ويطمئنه على من يكترث لأمرهم ومن لا يكترث أيضاً, يستحيان من أن يرمي أحدهما اللوم على الآخر أو أن ينسجا فرصة لأيّ شكل من أشكال العتاب, هي فقط ذاكرة تطارد صاحبها, تذكر حينها أن الأمر لا يستوجب كل هذا الحزن

الوجهة المبهمة لا تعني بالضرورة حيث تعتقد فقد يكون الإتجاه الذي إفترضهُ أماناً الإتجاه الذي إرتسم في مخيلتك ملاذ رحيم, هو الوجهة المبهمة منذ البداية, كانت هذة الجملة مطبوعة على ذهنه بشراهة منذ سنوات طويلة, قرر حينها أن يهجر محفظته تلك, أن يُفلت الشيء الذي يسحبه نحو الوراء لكن ماذا سيفعل حيال ذاكرته وعشوائية التنقل عبرها, وهل سيكون الهروب حلاً وسطياً يستدعي المجازفة__ لا يعلم

في مساءً بهيّ خرج كعادته بكامل بهاءه الرياضي ليبدأ بالركض عبر طرق ملتوية يُحبذها, طرق تؤدي إلى حيث لا يتعثر بوجوه يعرفها, هو يركض من كل شيء, من ذاكرته وذكرياته, من ظله وظلال الأشياء الأخرى, فقط يركض ولكن لأسباب عدة, ربما هي طريقة مُثلى لترويض الذات تخصه وحده, حتى وجد نفسه أمام منزل بائع الحشيش الذي كان يرتاده مع اصدقاء آخرين تساقطوا تباعاً مع الوقت, إلتقط انفاسه وهو يُحملق فيه وفي الطريق يعود بنظره للمنزل ثم للطريق مرة أخرى ثم لأماكن لا يعرفها,

نظـرات يسـترجع عبرهـا لحظـات السـمر والسـفر عبـر لفافـات خـرج ابطالهـا وصُـناعها مـن المشـهد, لفافـات ـــ مُطِـرت ـــ بمنقـوع الـبلح العتيـق وإسـئناس النَـدامى, نظـر أخيـراً لبـاب المنـزل, دخـل فـي صـراع محتـدم بـين أن يـدخل ليعيـد طقوسـه القديمـة أو يـذهب بعيـداً عـن قدسـية المكـان, هـو فـي الحقيقـة مُمـتن لـذاك البـراح الصـغير الكبيـر وللكـاهن بـائع الحشـيش لكـن لمـاذا الآن, لـم يهـتم بالسـؤال المنطقـي الـذي طرحـه الجـزء العقلانـي منـه لتـوه وإقـتحم المكـان بخُطـى متـرددة, لـم يتـردد الكـاهن كثيـراً فـي الترحيـب بـه بحُكـم أنـه زبـون قـديم لكـن قُدومـه فـي اليـوم الـذي سـبقه صـراع شـرس مـع مكافحـة المخـدرات كانـت كفيلـة لإثـارة الشـكوك تجـاه كـل زائـر مهمـا كـان, تحايـا حـارة سـبقها سـؤال طبيعـي عـن سـبب غيابـه الطويـل تحولـت فيمـا بعـد لضـحك هسـتيري, أكرمـه المعلـم بلفافـة كانـت قابعـة يسـراه,أخذ ـــ رأس حشـيش أصـلي ـــ بسـعر آل البيـت بإعتبـاره مـن الـذين سـاهموا بصـورة أو بـاخرى فـي تطوير العمل, مدّها ببطء مقصود وحميمية لذيذة

تـذكر غابريـال أنـه كـان يخـاف تلـك اللحظـة التـي يسـتلم فيهـا رأس بنقـو عتيـق, يخـاف أن يتعثـر ببوكسـي المكافحـة اللعـين وهـو يجـوب أزقـة الحـي المنبـوذ, تـذكر ود الصـول أحـد أفـراد السـلك البوليسـي ذو العضـلات المفتولـة والشـارب الطويـل وهـو يطـارده عبـر شـوارع ومنعطفـات حـي أم جِخـن الضـيقة المتعرجـة, تخيـل فـي ذاك الوقـت أن الراهـب لـيس سـوى رجـلاً بوليسـياً, سـدد ضـربة عشـوائية فـي الهـواء حسـب إعتقـاده وفـي عنـق الراهـب واقعيـاً وواقعـاً, رد المعلـم الضـربة التـي أفلحـت فـي أن تعيـده مـن التعمـق فـي ذاكرتـه, كـل شـيء كـان حـدثاً قـديماً إسـتحدثته الـذاكرة إلا تلـك الضـربة التـي نالهـا الراهـب, لكـن مـن سـيُخبر الخـائف المتـورط بـأن الـذاكرة فـخ مُحكـم وأن البُنيـة أكثـر نُضج وشفافية من الأم دلدوم

قـدم إعتـزار باهـت وهـو يقصـد بـاب الخـروج, وهـو عبـارة عـن صـفيح كـان فـي الزمـان القريـب للجـازولين, بـاب مقيـد بتسـاهل مقصـود لـن يصـمد عنـد أول محاولة صِدام مُحتملة

يقول المثل:

- مسحوقان عليك ان تستمتع بهم, مسحوق البنقو ومسحوق الصندل

أخذ يجول عبر مخيلته وذاكرته اللئيمة مُحرضاً انامله على صُنع لفافة عبقة تساعده في التسكع والمُضي, بلاد الله الشاسعة تلفظ الفداديات والبغايا والشيوعيين خارج اسوار المواطنة, تلفظ ابناء الحرام وتترك ابناء الحرام من الطبقات البرجوازية حيث يختلف إبن حرام مسكين لطيف متعفن متسخ عن إبن حرام مُترف سمين بحلمات صغيرة وبطن مترهلة, في أوج مفارقاته تلك عبرت بائعة مدمس سمراء متسخة جميلة, شاهرة يداها المتشققتين الممسكتين بصفرتها البيضاء, طفلة وليست طفلة, إمراه وليست إمرأه, هي هكذا مزيج من إفرازات الوطن المتعاقبة, يظهر على جسدها الصغير منافي ومدن وقرى محروقة وعلى صدرها نهدان صغيران جميلان نافران يشقان طريقهما بين ازاز العباءه السوداء الممزقة, يبحثان عن ضوءٍ يمرحا فيه بحرية وعن يدٍ يُسري تعتصرهما بحميمية, لفظ فكرة أن يختلي بمعاناتها أكد أنه لن يختلف عن صاحب البندقية الذي طردها من وطنها الذي تألف والأرض التي تُحب, أزاح فكرته الذكورية الحمقاء من بين سرواله الكبير وعاد للفافته التي أخذته بدورها في رحلة إلى الجنوب وجامعة جوبا, إلى الملكية وقايتانو إسحاق, مومبيو وسيمو, اصدقاءه ابناء الحرام الرائعين ، هو هكذا يعيش في ذاكرته,يعيش في رأسه ويجترُ كل ما تُمليه عليه السجارة العتيقة وكأنه توقف هنا ليعبث بذاته المخبأه أو الإنسان الآخر داخله ، أعاد فتح محفظته, نفس الوجوه والصور الملتصقة, ذات النظرات القاسية والوضعيات القديمة, يحتضن والده في مكان ما وماريام في مكان آخر, يحاول ان يبصق نفسه داخل محفظته وهو يبكي, يحشر رأسه ويبكي بهستريا مفرطة, يُطلق العنان لمخيلته عسى أن يستقرأ فكرة الولوج إلى هناك, دون جدوى يفعل ذلك ودون جدوى ايضاً يبكي, مسح على وجوههم برقة وحنان عميقان وهو يهذى:

- ماذا لو كُنتم أحياء, ماذا لو كنتم هنا الآن

ماذا لو أنكم خدعتم الموت مثلي وتورطم في الحياه, فنحن قوم يكمن العذاب الحقيقي في بقائهم, إن كنتم أحياء فعلاً لا تبحثوا عنيّ, لأنيّ ذاكرة صدئة, فقط ذاكرة تستفحل كل الأحداث ، تسلق جرحه سريعاً, تنهد بصعوبه بالغة وعنف قبل أن يمُد يده اليمنى المرتجفة ليبحث أسفل السرير عن بقايا سجارة لفظها سهواً, نبش الرمل القابع هناك بدقة متناهية واعصاب متوترة, عثر على واحدة تُركت بتصرُف, أشعلها وطارد الدخان النافذ منها كمن يُسرب روحة عند آخر لحظة إنتشاء, ربما كان عليه أن يحتفظ بشيء من صوت ماريام يُسربه إلى داخله ليُعوض ذلك التبدُد, آهات وأنات ينفلتان ببطء وقسوه, عبثاً يحاول الصراخ عبثاً يُجرب صوته النحيل ليُصدر ضجيجاً نشاذ يعبر عن إمتلاءه, يأبى أن يستوعب فكرة البقاء داخل ذاكرته اللعينة ، رمى محفظته الصغيرة اللئيمة الجميلة على شاطىء البحر, البحر أكثر نُبلاً وحفاظاً على مقتنيات الذاكرة, البحر صديق الشجر واليابسة والقتلة والماء وابناء الحرام وفض الإعتصام ايضاً, رمى بها وكأنها لا تخصه, بات أشدْ إستنكاراً لفكرة أن تسوقه ذاكرته نحو انحاء لا يستسيغها, نحو مآتم ومجازر وحزن لئيم ينخر جسده المتآكل والمتهالك حد الموت, نظر إلى نفسه بخبث جنديّ مقاول ثم أضاف:

- الموت موت, لكن أن تحيا هو الموت الأشد لعنة وعليك أن تكون أكثر شراهة وقوه ومرونه لتفعل ذلك.

تمطأ وتنفس الصُعداء, هذا التحول قد يستدعي الإحتفال أو بالأدق زياره أخرى إلى منزل الراهب للإطمئنان عليه أو لشيء في نفس غابريال, أخذ ينشد مقطعاً من أغنية قديمة رثة وهو يستحم, صوت المياه المتطايره تتداخل مع اللحن لتُنتج إيقاعاً جميل مع نسبة ضعيفة من البشاعة, يقفز كطفل تعرف أخيراً على خصوصيته في الإستحمام وحيداً دون أن يستعين

بأمـه فـي تـدليك ظهـره العـريض, خـرج نظيفـاً مـن ذاكرتـه ورائحـة البنقـو أو هكذا خِيل له ثم صرخ:

- فـي الحـالتين نحـن ابنـاء حـرام, لكـن عليـك أن تقـرر هـل سـتكون إبـن حـرام مسـكين لطيـف مـتعفن متسـخ وشـريف أو إبـن حـرام مُتـرف سـمين بحلمات صغيرة وبطن مترهلة ولص محترف وقاتل في أغلب الأحيان

22

سوسن الأخرى

البابنوس يترنح في حضن الأرض كعادته المسائية الشفيفة الذائقة ، يرقص نيابة عن بيوت الحزن المتناثرة على أطراف الطرق المعبدة بالأسفلت ، المُتشققة ، المكتظة بالحصى ، جمالية الرقص في توقيت كهذا يبعث في نفس سوسن فرح عظيم ويبدد الغصة التي في حلقها إذ تتعرى من تقاليدها وتربط على خصرها خِماراً أحمر تُغيظ به الفراغ وتعبر عن إختلافها هناك ، ترقص بجنون وشبق ، تحاكيها خصلات شعرها الكثيف طرباً وجسدهاالنحيف الممشوق يتهاوى برقة ورغبة ، لبرهة كانت بابنوسة جميلة كما أرادت ذلك دائماً ، لوهلة تخلصت من حقيقة أنها مجرة إمرأة بدوية تهش اغنامها وتُنبت الزرع إلى أن تصل عمراً حدده آخرون للتلاقح والوطء ، كانت ما كانتهُ وما ترغب في إستمراره ، سحبت نايّ تدفنه عادة تحت شجرة لبخ كبيرة تألفها ، بدأت بالعزف ، هي لا تدري كيف تعزف عليه لكنها تمارس الأمر بحب ، ليست بارعة في العزف والإنتقال من صوت إلى صوت لكنها تواصل النفخ بحرية ، عموماً ما دامت تنسج لحناً لا يستمع إليه سواها فهو جميل ، ففي الغابة يستمتع الأسد بزئيره والحمار بنهيقة والعصافير بهديلها وسوسن بلحنها الركيك اللطيف

هشّت أغنامها نحو القرية بعد أن هيأت نفسها بكل ما هو أخلاقي فيها لدخول بلدتها المقدسة ، انبياء ورسل ونخاسين ورقيق ، داعرت محصنات وشريفات لعينات متهمات ، تسمع أصوات زغاريد في الأفق كلما دنت ، تحاول أن تحرز الأمر ، روائح البوزة واللحوم المشوية يكتنزان الفراغ المتناهي ، زغاريد من ناحية أخرى قريبة ، أرعبها المشهد وفي مخيلتها رسمت عروس لها هط على منزل والدها الحسن ، رسمت مشهداً ما وصدقتهُ تماماً ، بكت بكل ما تحمل من يأس ، كلما دنت ذاد رعبها

وسارعت أنفاسها المختلطة بالدموع ، أخذت تمشي محملقة بعينان مُدهشتان كبيران ، على أعتاب القرية رأت شقيقتها الصغرى منال ، صرخت بشدة كأنها أنفقت قوتها في صيحة واحدة

سألتها من بين الدموع :

- في شنو يا منال الحلة مالها جايطة كدي

منال بعد إبتسامة طفولية نميمية بعض الشيء :

- حاج الصاوي ، الساكن في البندر شالوه ناس المجلس

سوسن بعد أن تنهدت :

- تشيلو الداهية يا ربي ، رمى لي قلبي ، قالتها دون أن تعرف ما هو المجلس ، فما دام الأمر لا يمسها فليفعلوا ما يشاؤون

كانت منال تقصد أن حاج الصاوي حاز على موطيء قدم في المجلس التشريعي لكن لغتها وطفولتها خاناها ، شيخ القرية والد سوسن قرر حينها أن يُقيم مأدبة على شرفه لكن في الحقيقة هو عربون ما ، مقدم منفعة ما ، لأن الحسن أو المصلحجي كما يحلو لموسى العلماني يُبيّت شيئاً في جوفه بالتأكيد ، أو كما يقول دائماً :

- قدِم كل ايام الأسبوع من أجل الأحد الذي تريده

موسى العلماني إبن شقيقة الصاوي ، أمه الحنانة صفية عجبين أو كما يُناديها الجميع صفاية لشيء في نفوسهم ، كانت إمرأه بدينة جميلة يتغنى بها الشعراء وتتناقل سيرتها النميمة ، تمتلك وجهاً أبيض دائري وردفين طريين مكورتين وأشياء أخرى ، وهذا كلهُ على ذمة المغفور له بإذن الله داؤود يحي تاجر الأواني المنزلية وبنابر الحديد وزوج صفية في آن واحد ، دائماً ما كان يهذى لحظة سُكر بما تقتنيه صفية من أشياء ضيقة وأخرى

ضخمة ، كان يحبها ، يحب تفاصيلها المتعرجة وضحكتها المجلجلة الناعمة ، يعشق أن تأتي وتأخذه كل ليلة من أسفل الجبل وتبحث عنه بين الجثث ثم تنتشله ببطء ، يتقيأ على ظهرها كطفل ، يضحك ويمازحها ويسب ابيها وأب القرية ، يسب الأرض والسماء والجبال و القرية ، يسبهم ويلعنهم جميعاً عدا الحسن ، الحسن الذي يخشاه الأحياء والأموات والجبال والخمر ايضاً ، ولا يستيقظ إلا غداً وقد نسيّ كل الذي حدث

السادسة صباحاً تستيقظ سوسن ، تجلد عيناها الناعستان بماء الدلو ، تقصد زريبتها التي في الأصل بيتها ، تداعب أثداء اغنامها لتُرضع أخواتها وأمها ، تداعبهم بنشوة صباحية تستلذ بها ، ربما لمماثلة ما ترغب فيه ، ثم تخرج نحو الخلاء الذي تحب ، هكذا كلما إبتعدت إتسعت الأرض أمامها وباتت أكثر تحرراً ، كلما إبتعدت تشظت وتبعثرت بين الأشجار والأودية عصفورة صغيرة تمتهن التحلق والغناء ، تتحرش باجزاءها هناك وتبتسم وتكتشف أشياء غريبة جميلة ، هي إمرأه بكامل أنوثتها الآن ، ترقص عارية على الضفة دون أن تخشى رقيب أو نمام ، تعود للماء وتخرج منه ثم تعود مرة أخرى عالقة بين إنحدار وعمق ، بين شهيق وزفير.

كما يقول المثل:

- الرقص حِيلة الضُعفاء على عنف الطبيعة

هبط المساء وسوسن تُطرز الشفق بجسدها الأملس ، تخلصه من الشوائب فيبدو كمرآه ، تزيده حياء وبهاء وإجلال ، ثم تغمر نفسها في جوف الوادي لآخر مرة قبل ترتدي ملابسها المعلقة على جِزع شجرة ما وتهرب نحو القرية بعد أن هشت اغنامها

في ديوان العمدة باع الحسن إبنته لحاج الصاوي رجل المجلس ، إستبدلها بنفوذ لا يمتلكه في الأساس فهو ليس سوى طرطوراً صغير في مستودع الطراطير الواسع ، ليس سوى حمل وديع جاهل في صف الحمقى

المتورطين في الجهل والتهكم ، لكن الحسن باعها لأول مشتري ، لا وجود لفرصة شورى أو رأي في مجتمعات ضيقة كهذه ، الأمور المماثلة تنتهي هناك في غرف مغلقة واكواب شاي وقهوة ، ينسفون رغبة كل أنثى داخل الديوان ، كم سوسن إنتهى بها المطاف على ذاك البساط الأحمدي ، كم سوسن إختاروا لها رجلاً ومنفى وقبر ، ساقت الأرض النميمة عبر ثقوب الباب إلى نساء القرية ومرت بينهم بسلاسة أنثوية رهيبة ، بتفاني وسرعة ومكر ، تناقلن الخبر ، منهن من حزنت ومنهن من زغردت ، منهن من تملكها الأسى ومن إعتراها الفرح لخبث في دواخلهن ، النساء هكذا معك من معك وعليك من عليك ، والدة سوسن في أصى ركن من البيت حيث وصلها المُصاب ، لعنة ما هطت ، صُدمت ناحت وصمتت ، ندمت وتباكت وكأن سوسن جثماناً ، وما أن دخل شيخ الحسن صمتن وكأن شيئاً لم يكن ، جميعهن إلا أم سوسن واقفة كعود يابس بعينان مدمعتان متوسلتان ، قالت بين كل ذلك الدمع:

- بعتْ بِتك يا حاج حسن ، بعتها لراجل أكبر من ابوها ، الله ينصرك يا حسن رجع لي بتي ، الله ينصرك خليها في حالها البِت لساها صغيرة

قال بعد أن عبث بشاربه ليبدو أكثر رجولة وهيبة :

- البِت بتصلح للزواج وانا قررت وما برجع في كلامي زيني العروس ، ستُزف الليلية وإلا ، ستستجدين الموت ياتو يوم في مره بتكسر كلام راجل ، انتِ بت كلب ولا شنو

توسلتهُ وركعت على رجليه ، دموع دافئة تتسرب داخل خُفيه ، دموع شرهة غزيرة ، لكن ما حدث قد حدث فكيف يعود ليسحب كلامه ، لقد قال وإنتهى لقد باعها وإنتهى ، كل شيء يتعلق بالرجولة خط أحمر ، زجرها ورماها بعيداً ، لم تشفع لها تلك الدموع وذاك الخنوع ، لم تشفع لها

العُشرة والملح ، ها هي جارية بذيئة وعجوز يمكن أن يقتلها بضربة عصى غليظة .

سوسن تغني وهي تعدو نحو القرية ، ترقص وتبتهج ، لم ترتدي قناعها الأخلاقي هذه المرة ولم تدري ما تخبئه القرية حينها ، إيقاع الدلوكة يتسرب إلى اذنيها ، أصوات النساء واغانيهن الحميمة ، رائحة المسك والبخور عتيان فوق سماء القرية ، فرحت لأنها سترقص الليلة علناً وأمام جميع النسوة ، سترقص على إيقاع التُمتُم الذي تحب وتُغني مع الصغار ، هي لا تدري بأن الليلة ليلتها والفرح فرحها بل الحزن حزنها ، ما أن وصلت القرية إختطفها النسوه ككومة طلح نيئة لذجة إختطفها النسوه بقوه وكأنهن يأخذنها سريعاً نحو حتفها ، لم تُبدي إعتراضاً بل إستمالت لعملية الخطف بضحك هستيري ، لا تعلم كم ستبكي بعد أن تعي الأمر ، ادخلوها حيث أمها التي إستنفذت قدرتها على البكاء هي الآن جثة متسمرة في مكانها ، ترى ولا تتحدث تبكي دون دمع دون صوت

سألتها سوسن:

- في شنو يا أمي مالك ، بتبكي ليه

قالت بعد أن عانقتها موجهة الحديث لباقي النِسوة:

- جهزن العروس

صدمة عارمة إعترتها ، بدأت بالبكاء أخذت تصرخ بقوه وهي تسأل بين كل ذلك ،:

- لماذا ؟ أنا لست عروساً ، دعوني

لكن دون جدوى فشيخ الحسن أتمم الصفقة ، ربما قبض مِقدم المنفعة مع المهر والصداق ربما حصل أيضاً على حق الرضاعة وسدّ المال ، ربما أخذ كل شيء وإستنتج عادات أخرى يأخذ عبرها مالاً فائضاً

الصدّ والركض لم ينفعا سوسن ، النسوه كُن قاسيات بما يكفي لترويضها ، تبكي وينتفن منعرجاتها تبكي ويغزلن خصلها ، تبكي وترتدي فستانها تبكي تُزف ، ليس مهماً أن تبكي المهم أن تتزوج ، حاج الصاوي في أبهى صوره ، بأسنان صفراء وعباءة ذهبية جميلة جالس بين الحضور في ديوان حاج الحسن ، ينتظر زوجته الصغيرة ، يوزع الحلوى والأموال وكأنها فعلاً تستحقهُ

رقص من رقص ، إنتشى من إنتشى وسكِر من سكِر ، ذهب البائع وذهب العروسان إلى حيث ذهبا وعاد الحمقى إلى أعشاشهم بعد أن ساعدوا زعيمهم نخاس القرية في تجارته

كان حضورها باهِتاً مشعاً

تأتي وتذهب في وقتٍ واحد ، تمُر من فوق حاج الصاوي كسحابة ومن تحته كماء ، كضوء رِمس ، تطير وتهبط ، يطير معها ويهبط طفلاً فضولياً ، يطير ولا يصلْ ويهبط فلا يصلْ ، مُعلقاً بين الممارستين ، تُثني يمناها وتبكي خِلسة ، وخِلسة أيضاً يحاول أن يصل ، هي هكذا مزيجاً من كل شيء والا شيء ، دقيقة في تفاصيلها كلوحة ومتذبذة في تآلفها الخجول وهو شيطان صغير يُمكن أن تُأدلجه الملائكة في أيّ وقت ، شيطان بقرنين صغيرين بارزين ، لم يستخدمها بعد في مهمة إستشعار خبيثة ، لعنة لم تكتمل ، معجون بنيران عديدة دافئة ومنسيّ في بيت (أمون) القديم أو في مبنى المجلس التشريعي العتيد ، إستسلمت سوسن مع الوقت ، لا مناص ومخرج فها هي في بيتها فتاه بكره بكامل زينتها الموهوبة من الرب ، يدخل عليها يداعبها ويعبث بصدرها النافر ثم يتركها في أوج هيجانها وينام ، ربما لأنه يخشى أن يجثو عليها بثقله فيقتلها ، في الليلة التي تلتها نصبت فخ أكبر ، إنتظرته قامت بمداعبته وبغنج الأنثى تعرفت على شيئه داخل السروال الكبير ، إستمرت بمداعبته وإستمالته ، فعلت ما يجب أن يفعله هو وما زالت تواصل حتى تجرأ على ذلك ، وطئها لكن لا

شيء فمددّته وجلست على شيئه ولا شيء فقط كومه نائمة ثخينة مترهلة ، هي تهبط ولا تصل تطير ولا تصل ، يطير معها ولا يصل يهبط ولا يصل بتاتاً ، تائهان بين الممارستين ، يشخر مثل عربة تمكن منه الوحل ، قال بين سعاله وشخيره حاولي مرة أخرى ، حاولت وهي تبتسم ساخرة من هذا العجوز الذي لا حول له ولا قوه ، داعبته داعبته بشراهة ثم بصق .

أم سوسن تصلي من أجل إبنتها وتبتهل ، تلعن زوجها حاج الحسن الذي رمى بها في لجة عميقة كقطعة لحم سائغة تنهشها الليالي والنوى والرجل الخرف ، تذكرت زواجها من الحسن حينما كان عمرها لا يتجاوز الثلاثة عشر عاماً ، طفلة تهش الغنم كسوسن لوريث المشيخة الحسن أبو سن ، هي ذات اللعنة تطارد إبنتها من جديد وربما ستلحق بحفيدتها أيضاً ، كل شيء في يد القدر الآن لا شيء سأخسره ، الحمد لله على كل حال

نسوة الحي في أقصى شماتتهِن ، ها هي الصبية التي طالما كرهوا فرحتها الزائدة ورشاقتها وإمتلائها بالحياة ، العاهرات لسن من يتاجِرن بفروجِهن فقط فالعهر يمكن أن يكون نميمة وشماتة وغُبن وضغينة

حاج الصاوي أصبح مجرة سوسن آخر إذا ما أخذنا الرجولة بمعايير شيخ الحسن ، لقد أصبح رجلاً في المجلس التشريعي فقط وليس على سريره ، إنزوي على نفسه بحزن وأسى لاطماً خده ، إنضمت إليه سوسن تؤازره وهي تضحك داخلها :

- ستُشفى ، صدقني ستُشفى

وفي السر كان إبن الجيران حاج صاوي جديد

23

فَلسفة المُشاط

البنادق تُهدي ايقاعها إليهن ، اللائي يُعدنْ تدوير النميمة في بيت إحداهن ذات قهوه وهنْ يخلعن وجوهِهن ، مكياجهِن ، حيائهِن وحتى ثيابهِن إليهم ، الغارقون في بئر الخمر والنشوة ، العاريين من سجاياهُم ورقابة الملكوت إفتراضاً ، حينما تنزوي الشمس تحت إبط السماء ، ينزوي الآتون من أقصى الأمكنة في أحضان أُنثيات الحي ، بائعات الجسد يُستخرن بعضهن ، ينتعِلن رغبتهن في الصيد والإنغماس في تقفي العائدين من الموت ، يستشعرن جيب وبنطال أيّ رجل يمر بمحازاتهن.

وفي بيت سوميت المتكئ على الوادي نخبئ ذواتنا أو ما تبقى منّا ، نستوحي من دخان المقود المعبئ باعواد الصندل العطرة فكرة السفر عبر المخيلة ، نجوب مدن لا تشبهنا ونمر بأخرى تلفظنا سريعاً خارج المخيلة ، ترمينا على مدارج العودة المتسخة بمتعلقات الحي القديم الذي لم نبرحهُ منذ البداية ، ربما لأننا خلقنا فرصة أكبر للعودة قبل أن نذهب على سرير خشبي قرب غرفة الطين المتهالكة إستلقت عفاف بعد أن حشرت نفسها داخل غطاء مبتل ، يأكل جسدها الحمى والهذيان ، شفتاها المرتجفتان تفتعلان صدى خفيف لحديثها الركيك الغير متزن ، تشعر بأن الموت يتسلقها وانت تضع كفك أعلى رأسها ، تبتهل وتُتمتِم بصوت دامي وتُقلب بصرها نحو اتجاهين بمزامنة دقيقة ، كل ما فعلته في الماضي يمر امامها عبر تلفاذ وهمي اصطنعهُ الشعور بالموت ، كل صِدام وخطيئة صوبتهُ بخطيئة أخرى وكل أمر عالجتهُ على فراشها السائب ، تُغير وضعيتها لتهرب والمشاهد تطاردها ، تُغمض عينيها فتخترقهما الأحداث بعنف ورقة كضوء فاحش السطوع ، تغمس ثوبها الهزّاز داخل إناء الماء الذي وضعتهُ قربها

سابقاً وتتسِرب داخله بلطف مُتحسسة جسدها العاري إلا منه ، تمتزج دموعها بذلك الماء المتقطر الدافئ وهو يسلب الحمى تدريجياً

سوميت تتجول بيننا كأفعي وتُقسم عرق النخيل وعرقها المُر علينا وبعض غنجها اللئيم على الزبائن الجدد ، تضحك بسرعة وجهر ضحكة مُختزنة قديمة لملمتها ذات فرح فليس في حاضرها القريب ما يستدعي كل هذا الضحك ، تتسلل بين الجالسين بخِفة وهي تسترق النظر إلى الأعين التي تلاحقها ، عيون الشباب ، الكهول ، بعض موظفي المحلية ، انا وصديقي عمر أحياناً ، وبعض الحرفيين ، تلبي نداءات الجميع ثم تهبط على كرسيّها الخشبي بعد أن ملّت التحليق

قالت بعد أن سحبت دخان السجائر إلى رئتيها :

- الليلة عيسى فُوري ما جاب لينا بلح

وكأنها توحي بأن الغد يوماً عصيباً أو أن السعر سيختلف أو أنها ترغب في طرد بعض الزبائن المتهربين من الدفع أو ربما لشيئاً في نفسها لا علاقة له بعيسى والبلح ، غمزت لنا في لا وعينا ، وعرفنا فيما بعد أن الرسالة كانت لعناية يعقوب وزملاءه جزاري السوق الكبير

أن تذهبين باكراً إلى مكان متفق عليهِ لتمشطِين شعركِ يومياً يعني أنكِ تسحبين الونس والنميمة على إيقاع إبريق القهوه وليس المُشاط سوى ذريعة لمُشاطٍ آخر تطبخِينهُ على مهل وانتِ تعبرين بعيناكِ الشارع و أرفف بيوت الجيران ودواليب الأنية وحتى لون الملاءه التي تحت ردفيكِ الكبيرين الجميلتين ، هناك يُشعلن بعضهن ويخطِطن ويرسمن ويتوقعن مصائر الأشياء والبشر ، هناك بالضبط ينفقن مصروف الشهر على ما تأتي به الدلالية من مقتنيات انثوية رديئة جميلة

تبددت الحمى قليلاً لكن جسدها المتهالك ما زال يستبيح سرير الخشب ، هي لحظة أقرب لرد الروح مرة أخرى بعد أن فاضت إلى بارئها ، لحظة

افرغت فيها عفاف ذاكرتها الممتلئة بجلسات النسوة وعوائهن ومكائدهِن ومُشاطهِن ، فرصة أخرى إفتكتها من يد القدر بصعوبة وصبر هشمت بعدها فناجين القهوه أمام إبنتها تامبير ثم أردفت :

- تاني ما عايزة أيّ مرا تشرب قهوه في بيتي ، بيتي ما بيت شكش مفهوم ؟!

تامبير بعد أن مسحت بعينيها رزاز وبلور الفناجين :

- حاضر يا أمي

قرر نديمي عمر بعد جلستنا البهية تلك ، خصوصاً عندما أحرجتهُ سوميت لسبب لا أعرفهُ ولم يشاطرني إياه ، حثني بصوت غاضب على الخروج وفي مخيلتهِ نسج قرمصيص وضع فيهِ تامبير إبنة عفاف ، يترنح كريشة ويتلعثم ويبكي ويضحك ، يفعل كل شيء في وقتٍ واحد أو ربما إعتقدتُ ذلك ، لا أدري أيّ رأس لعبت فيه منقوع سوميت الخبيث ولا ادري من الذي يحمل الآخر ، هو أيضاً يجهل ذلك ، تلفظنا الأزقة لأزقة أخرى ثم لشوارع أوسع تهدهدنا كطفلان رضيعان أضاعا ثديّ امهما في زحمة الأثداء المتناثرة ، نبصق أنفسنا في لحظة اللا وعي تلك ونترجمها إلى حكايات عديدة ليس من بينها أن عمر يشتهي تامبير إبنة عفاف الغارقة في بحر التوبة المقدس ، تامبير أنثى النشوة التي تقتحم بصورة همجية جلستنا وتسحب منيّ عمر ، تسحبهُ نحوها فيغيب مغمض العينين منزوع البصيرة ، أو كما تدّعي سوميت أن تامبير تخرج من قنينة عرق النخيل وتحشر نفسها داخل كأسه بطريقةٍ ما تخلصت عفاف من ذاكرة العاهرة التي كانتها وحذرت بصورة قاطعة من أن تأتي النسوة إلى بيتها لأيّ نوع من انواع المُشاط وأقسمت بالله وبآباء إبنتها الكُثر على ذلك ، إلتحقت بجمعية الحي النسوية الخيرية ومسيد الشيخ سيف الدين الذي يعمل مجاهد في الدفاع الشعبي حينها ، وغابت في غياهب التصوف العميق متحررة من نسختها الرديئة ، الأمر أشبه بأن تغمس نفسك داخل إناء ممتلئ بمنقوع ما لتستعيد ذلك الملاك

المنهوب منك في أسرع وقت ممكن ، أمراً قد يُفقدنا صديقتها المقربة سوميت التي طمأنة ذبائنها بأن الأمر مستحيل وان عفاف ستعود بعد أيام أو شهور فالجمعيات لا تدر نقود ولا تُشبع رغبة الأنثى التي إعتادت على تسويقها خارج دائرة الرغبة ، لكننا وفي السر لا نرغب في عودة عفاف إلى شخصيتها القديمة

عمر يعبئ جوفهِ بمنقوع البلح ليلتقي بتامبير ، يواعدها ويلتقيها ويستأنس بها وقتما أراد وحينما شاء ، يعتمد الأمر فقط على كم كأس يرتشفهُ وكم ساعة تستمر رحلتهِ المجازية من حيث بمبر الحديد الذي يتأبطهُ ، سوميت تلوح بيديها أمام وجهه ثم تضيف راسمةً ابتسامة واسعة :

- صحبك دخل في غيبوبة ، الله يعينو

شعور صديقي عمر يحرضني لأن أخوض تجربة مماثلة واتذوق لذة أخرى غير لذة منقوع النخيل العتيق ، فبالرغم من كتلة الحزن التي تُدثره والألم الذي يعبرهُ ببطء ثمة فرح مدفون بحب في حناياهُ وعشق يتخلل لحظات السمر التي يعيشها أسفل بيت سوميت

لكن من أين لي بتامبير أخرى ؟!

ربما الشعور بالحب يخيفني أكثر من الرغبة في الإبتعاد منه ، ففكرة أن تكون متاحاً مكشوف الدواخل لا تروق للهاربين والمنغلقين مثلي ، لا يكترثون للعلاقات المكلفة وترجمة احاسيسهم لجُمل مبتذلة حيث ايمانِهم العميق بأن الشعور لا يمكن أن يتحول لمُفردة أو يتجلى للغة

إرتقت عفاف من طالبة في مسيد الشيخ سيف الدين إلى الأمين العام للجمعية الخيرية النسوية المنضوية تحت اتحاد المرأه بصورة غير مباشرة ، ربما رغبتها في إرتداء الثوب الأبيض سيدفعها فيما بعد للدخول في دهاليز المحلية طالما أنها تمتلك كل المقومات التي تتفق مع معايير اتحاد المرأه الممنهج ، باتت أكثر إغراء من أيّ وقتٍ مضى وهي تتقمص دورها الجديد

المُغـاير تمامـاً لتجـارة الجسـد أو أنهـا تمارسـه الآن بطريقـة أخلاقيـة محـض إعتقـاد مـا ، هـا هـي تُمشِّـط الحـي جيئـةً وذهابـا ، تـوزع نسـوة الحـي لمجموعـات صـغيرة وتكلفهـم بمهـام مختلفـة ، تتأكـد مـن أمـوال الجمعيـة وإنسـياب الصـناديق المُبرمـة داخـل الحـيّ بـين النسـوة ، ثـم تعـرج علـى بيـت سـوميت مهدِّدة :

- يا تخلي تجارة القِرِق يا والله ببلغ عنِك

سوميت بعد أن ضحِكتْ بخُبث:

- نحنا دافنينو سوا يا عفاف ماتنسي ، شوفي سكة تانية
- المهم اللهم إني قد بلّغتْ

سوميت قبل أن تغلق الباب في وجه عفاف:

كلنـا عـارفين علاقتِـك مـع شـيخ سـيف الـدين ، السـواق الجديـد يـا اللُـورِي التائب.

عمـر فـي مواجهـة عنيفـة مـع معشـوقتهِ تـامبير التـي تـأتي لحظـة إغمـاءه لعينـة وتهـرب إلـى حيـث لا يـدري ، تـأتي بكامـل هيئتهـا الأنثويـة الطاغيـة وتعبـرهُ حـد الشـبق فينسـى كـل شـيء عـدا منقـوع الـبلح اللذيـذ وحضـورها الغيـر مخطـط لـهُ ، حتـى عنـدما تجـود لـه سـوميت بوطـأه عـابرة يتخيـل أن التـي أسـفلهُ ليسـت سـوى تـامبير صـاحبة العينـان البنيتـان والقـوام الممّشـوق والأثـداء الصـغيرة المنتصبة ، فيعِيثُ فساداً داخلها الغريق.

كـان مثيـراً للشـفقة حيـث أنـه يحـرص علـى أن يكـون مخمـوراً أطـول فتـرة ممكنـة ليسـتمتع بوجودهـا الـوهميّ معـه ، لقـد إفتقـدتُ تلـك اللحظـات التـي نكـون فيهـا بشـر سـوييّن ، بوعينـا واحلامنـا وأعمالنـا وشـغفنا ، أشـعر اننـا ضـللّنا الطريـق بالكامـل أو ربمـا الطريـق الـذي سـلكناهُ لا يـؤدي إلـى البـرّ المنشـود ، إشـتقتُ إلـى شخوصـنا القديمـة المعبئـة بالحيـاه والتجديـد المسـتمر ، إشـتقت إلينـا الحـالمين ، فمـا أخبـث الهيئـة التـي نتخـذها الآن ومـا اوحـش الإسـتمرار

فـي إنزلاقنـا السـريع نحـو قـاعٍ يلتهِمُنـا بـبطء ونشـوه أو بشـماتة لكـي لا نكـون أكثر تحديداً

تُرى متى سننتشِلُ أنفسنا من هذا الخراب أو متى سيلفظنا مُكرهاً ؟!

كنـتُ اراقـب تـامبير وهـي تقـتحم جلسـتنا المقدسـة فـي محـراب سـوميت الممّسـوس وتختلـي بعمـر أمـامي ، تمـرّ بخـاطري الـنهِم للإعـتلاء والتـدحرج ، وأعود مرة أخرى لكأس العرق الذي يتلاشى ببطء في فراغ الحي الثمِل

جلسـت سـوميت علـى بمّبـرٍ مقابـل تعتليهـا إبتسـامة شـامتة تـنمُ عـن نميمـة طازجة ثم أضافت :

- ما سمعتو الحاصل شنو

ودون أن تحظـى بجـل إهتمامنـا أو حتـى مـا تبقـى مـن إنتبـاه اردفـت بغـنج ودلال أنثى لا تشبهها بتاتاً

- عفاف دخلت الدفاع الشعبي قسم التوجيه المعنوي _ حكامة يعني

هـي فكـرة خبيثـة لتطـوير مفهـوم _ المُشـاطْ _ فالغنـاء فـوق الجثـث أكثـر فظاعـة مـن الحـرب ، لأن المهمـة الأساسـية لمثـل هكـذا وظيفـة هـي الـزج بمـن يتفـاعلون مـع تلـك الشـعارات لعـوالم أخـرى أبديـة قـد لا تبـدو كمـا وصِـفتْ لهـم داخـل مراكـز التجنيـدهي فكـرة خبيثـة لتطـوير مفهـوم _ المُشـاطْ _ فالغنـاء فـوق الجثـث أكثـر فظاعـة مـن الحـرب ، لأن المهمـة الأساسـية لمثـل هكـذا وظيفـة هـي الـزج بمـن يتفـاعلون مـع تلـك الشـعارات لعـوالم أخـرى أبديـة قـد لا تبـدو كمـا وصِـفتْ لهـم داخـل مراكـز التجنيـد, قـد لا تكـون كالجنـة التـي وعـدهم بهـا صـاحب الجلالـة والسـمو, لكـن لا مفـرّ طالمـا عاهـدوا اربـاب الأرض وبايعوهم على الطاعة

الفارس سيد الرجال

الفارس ضُراع الحِلة عضم الحوت

في حلق العدو الشيطان

المارد الجهّجاه ود البلاد الغُرةٌ

ثم تهز خِصرها بدلال وخُبث جليان وتُجهِز حنجرتها لزغروتة مأجورة يترجمها المحاربون نداءً سماوياً, وبناءً على ذلك يسحقون كل ما يمشى على الأرض وتحت الأرض وفوق الأرض من إنسٍ وجِن وحيوان وشجر, يلتهمون الأشياء بصورة تجعلك تعتقد بإصرار أن ثمة ضغينة أو نزعة جينية تستحوذ عليهم, كتلك القضية التاريخية المجهولة بين الأسد والغزال تماماً

خبئت سوميت ثلاثة قِنان كبيرة من عرق النخيل المعتق لأُمسية السبت التي عادة ما نقضيها داخل منزلها الصغير, بعد أن ساق الونس إليها أخبار عيسى فُوري الذي دُوهِم بواسطة قوه مجهولة صادرت جوالات النخيل المنتصبة من بيتهِ, قوه لا ترتدي زيّ أو عربة معنونة أو حتى لون مؤسسيّ واضح, عادة ما يحدث امراً مماثل حيث يعلن المجهولين عن مصادرة النخيل وعن الرغبة في التخلص منها عن طريق الحرق, ثم بعد ذلك يتضح أن المحرقة ليست سوى بيت سوميت أخرى في حيّ آخر أو مدينة أخرى, سحب عمر أحد القنان الثلاث ثم إتكأ على سرير يتوسط الغرفتين الطينيتين في الوقت الذي كنت أدس رغبتي في تناول القهوة داخل مطبخ سوميت او ربما معملها الكيميائي لا أعلم

إرتشف كأسان ثم أضاف:

- فلنُصلي من أجل عيسى

ثم أغمض عينيه ورحل إلى ذلك البراح المجازي حيث يلتقي بتامبير إمرأة لا تأتي على مهلها على ما يبدو, لا تأتي لحظة إستفاقة, فقط تقتحمه إقتحاماً حزين جميل وتعُيره بعض الدفء وكل الألم تخيفني دائماً فكرة أن ينفق رجلاً ما كل عمره في غيبوبة يستميت من أجلها!

غفـوت قلـيلاً, فإسـتيقظنا علـى صـيحات الحـيّ, الأمـر أقـرب لمهرجـان وطنـي وفـي عـز خوضـنا فـي تلـك الإحتمـالات الجـاهزة ووجوهنـا المُفزَعـة حشـرت سوميت نفسها داخل المنزل تعتليها ملامح خبيثة ويتصبب منها العرق

اضافت بين تنهيداتها السريعة:

عفاف المَشّاطة فازت في إنتخابات إتحاد المرأه

24

موسيقى الغياب

الأمر ليلاً يبدو أكثر وضوح ، حيث نعتلي ذواتِنا بجُرأةْ ، نتعرى من وقارنا الزائد وإحتمالاتنا الجاهزة ، هي لحظة نستشعر فيها حقيقة أننا أشباح ودِميّ لحظة أكثر دِقة من أيّ وقتٍ مضى

طائِر السنونو لا يُغني

هو فقط يُجربْ حنجرةِ ليلى ليبدو جميلاً

يُجرب نظرات بهنس التي تطارد بنتيهِ ، يضحكن اسفل شجرة الدوم ويصنعن مزهرياتٍ صغيرة لورود لم تأتي بعد من مشتل حي النسيم ، يتأملهن بحزن ورعب كما لو أنه يخشى فقدهن ويعود مرة أخرى لكُومة السعف القابعة تحته ليحولها رويداً رويداً لحبال أو كما يسميه مجازاً ، معبراً تمر من خلاله ليلى وشقيقتها الصغيرة نحو أماكن آمنة يجهلها

شمس الظُهرية الحارقة تنفح وجوه المارة التعبة ، تحول الباعة لمحمومين يعكفون الصبر ويعرقون على مهلهم وهم يعرضون بضائعهم البسيطة على الكرتون المقوى في سوق _ أم دفسو ، مكبرات الأصوات الصارخة تفتِق الأذنْ ، زِحام العابرين ونقع ارجلهم وأعينهم التي تطارد الأشياء المعروضة وكأنهم يبحثون عن كل شيء أو يتمنونهُ ، بهنس يجلس ممدداً قبالة حبالهِ المفتولة ، يراقب حركة السوق ولا ينسى أن يصرخ بين لحظة وأخرى بصوتة المخنوق المُلح _ حبال ، حبال ، حبال ، يلمح ليلى تلوح له من بين الباعة متأبطة حافظة الآيسكريم في إشارة منها لتحية عبقة ترسلها خِلسة عندما تمر حيث يجلس اباها عادةً مُزودة بإبتسامة جميلة جافة ومنكمشة من ثغرها الصغير وشفتاها المُتشققتين

في أزقة الحي الملتوية تلعب كلثوم مع الأطفال ، تقفز من بيت إلى بيت من طريق إلى آخر أو إلى غرفة أحدهم ، توزع بشاشتها وعبثها المريح وتستقطع من همومهم مقدار هذيانها الطفولي راكضةً في مخيلتهم طفلة ينتظرونها لتعبر بخفة ظلام حيواتهم وبشاعتها

تغني وتصفق :

- الليمونة الليلة يا

خلف مزياع الجيران المنتفض وكانهُ يرغب في التحول إلى شخصية حرم النور التي يقترن إسمها بهذه الأغنية تحديداً بشكل مدهش ، تغني لتملأ الفراغ الذي تركته ليلى من أجل أشياء لا تخطر في بالها ، بل نيابة عن ليلى أيضاً تُجهِّز على المقطع كاملاً بعفوية وبراعة ، على أرضية سوق أم دفسو يجلس بهنس مراقباً كومة الحبال الخاضعة لمشتري مجهول ، يقرأ في عيون المارة أشياء عديدة لكن ليس من بينها أنهم يريدون حبالاً اليوم ، وفي أثناء تتبعهِ المُضني جاءته ليلى تسبقها ابتسامتها الرائعة وتمددت بقربهُ بعد أن هيأته للونس مضيفة :

- بابا انا كملت الآيس كريم كلو ، خمن القروش في الكيس ده كم

ثم تلوح بكيس يحوي نقود فيصدر صوتاً أشبه بالكشكشة

يرمي بهنس في لحظات كهذه دعابة ما ليتهرب من حضور الكيس الصاخب ، يؤلمهُ فكرة أن بضاعتهِ لا يمكن أن تغدو نقود أو ربما سيتطلب الأمر مذيداً من الصبر ، أيقن انه يحتاج نوعاً آخر من البضاعة ، يحتاج طرق أبواب غير السعف المبتل ، بل يحتاج إلى ثلاجة بالفعل لكن كيف ، عاد من رحلة هذيانه ليجد ليلى تتطلع في وجهه محافظة على ابتسامتها الواسعة تلك ، مسح على رأسها ثم أردف :

- امشي البيت خلاص ، كلتوم منتظراكِ وبت محجوب ست الآيسكريم برضو بكون منتظراكِ الزمن ده

والـدتها منشـغلة بترتيـب بيتهـا الصـغير الـذي فـي الأصـل غرفـة وراكـوبتين مـن العلـف منتصـبتين فـي منتصـف المنـزل ، تنظفـه بـبطء متعمـد لقضـاء أطـول وقـت ممكـن ثـم تُنفـق مـا تبقـى منـهُ فـي غسـيل ملابـس بنتاهـا وبهـنس وشخصـها إذا صـمد صـابون الغسـيل التشـادي ، تُعيـر الـزي المدرسـي اهتمامـاً مضـاعفاً ربمـا لإعتقادهـا الجـازم وحرصـها علـى تعلـيم بنتاهـا هـو مـا دفعهـا لذلك ، التعليم فقط ما يطمئنها عليهن ويجعلها متفائلة بمستقبلهن

مـرت ليلـى علـى بـت محجـوب اعطتهـا نصـيبها مـن البشاشـة التـي توزعهـا عـادةً ، تناولـت وجبـة الغـداء التـي تعـدها بـت محجـوب خصيصـاً لهـا ولـم تنسـى أن تخبـئ نصـيب كلثـوم فـي جيبهـا السـري داخـل فسـتانها البنفسـجي الفضـفاض ، بـت محجـوب تـدري مـا تفعلـهُ ليلـى و مـع ذلـك تتعمـد الغيـاب فـي غرفـة مـا لتـرك متسـعاً مـن الوقـت كـافي لأن تـدُس ليلـى مـا تبقـى مـن طعـام ثـم تُعطيهـا مقابـل عملها في بيع الآيس كريم وترحل

ربما بت محجوب تُعد الطعام من أجل كلثوم منذ البداية.

فـي نهايـةِ القريـة جـبلاً قصـير يقفـز مـن علـى الأرض مُحاكيـاً لُعبـة مـا ، مشـيةِ مـا أو إحتشـادِ تصـورات البنيّـات وهـن يغـازِلن العشـب علـى مـرأى الشـجر والفـراغ أدرك الجبـل حينهـا بأنـهُ يسـتطيع المشـي ، يسـتطيع إفتكـاك بعضـه مـن قبضةِ الأرض ، لم يفاجئه الأمر لأنه في وقتٍ ما تخيل ذلك

وهنـاك فـوق الظهيـرة تجلـس ـــ هـي ـــ بعـد أن حـررت شـعرها ، ربمـا لتُغِـيظ بمُشاطها رأس الجبل الأملس

تحسستهُ برِفق ، دفعتْ اصابعها بتلذذ وشماتة مُخللةً إياه

وبإستمالة سريعة دققتْ في مرآتها المهشمة ـــ فصاح الجبل :

- إستحت فتهشمت

وقفـت ليلـى بجانـب الجبـل ، حرضـتها التُرعـة لعنـاق طويـل قـررت بعـدها أن تجـود لهـا بـه ، نشـوة الاسـتحمام تعتريهـا ، قفـزت لتُجـرب هـذه المـرة صـوت

الطائر ، طائر السنون وهو ممشوقاً على الماء ، شهيق ثم زفير ثم غطس ، مداعبة الماء شهياً جداً أكثر من أيّ تواصل جسدي ، شهيق ثم زفير ، زفير ، زفير ثم تلاشي ، كان الماء أقوى فذهبت في غياهب التُرعة ، إمتصها الماء إمتصاصاً مرعباً حد الغرق

هكذا وببطء كمن يُمرر مِديةٍ مُسننة تملأ الأرض دماً وتكتنز الأمكنة رحلت تاركة وجودها الطاغِ ممدداً هناك

البالون يطفو فوق ماءِ التُرعة

يطفو ليبقى بمتناول "كلثوم" ونظراتها الطفولية الشاحبة

تراقبه مراقبة لصيقة رافضةً فكرة أن تتقاذفه الرياح

تُدمِع عيناها ، وبمخيلتِها البريئة تُبسِط يدها المرتجفة علّها تُمسِك بشقيقتها ، هو بالون يشبهُ ليلى في قفزهِ الضاحك لكنهُ لا يغرق ، طاردتهُ بعيناها المدمعتين ، بصراخها الشرِه وهي تلتزم موقعها الذي تحاول أن تتحرر منه ، ترى ليلى ولا تراها ، تسمع صوتها وهي تُغني :

الليمونة الليلة يا

مانعِني ما نزورا

الليمونة الليلة يا

كان مزاحها ثقيل هذه المرة إذا طورت لُعبة الغِميضة إلى إختباءِ نهائي ورحيل مرّ ، وأحالت المنزل تُرعة إبتلعها وأبى أن يلفظها جِيفة ، فحتى الرحيل إلى الأبد يجب أن يكون مؤكداً ، يجب أن نتألم دفعة واحدة عسى أن نستريح بعدها أو نموت

طائر السنونو وقف أعلى شجرة الدوم العتيقة وأخذ يُغني ، هذه المرة كان يغني بصوتٍ تنازلت عنه ليلى ، هو وحده كان جاهزاً لأن يرثها ، وحده من كان يحاكي وجودها الإفتراضي بيننا

نظرت إلى البالون وهو يمضي كليلى

إصطدم البالون بشيءٍ أحاله إلى اشلاء مُصدراً دويّ ترجمته "كلثوم" رعباً

صدمة ما إعترتها فصرخت :

- "ليلى" ، أنى لكِ أن تعودين ، سأُهدي لكِ فستاني الأزرق الذي تحبينه ، سأعترف بجريمتي تلك التي عُوقبتي عليها نيابةً عني "ليلى" ، من سيسرق الحلوى من حقيبتي كنت أقصد وضعها في زاويةِ الأقلام ، لأنكِ عادة ما تمرين عليها حيث أدُس علبة الألوان خاصتكِ "ليلى" ، خُذي كل شيء وعودي مرة واحدة إليّ من ذاك الغرق

وبهنس هناك في زاوية المسجد العتيق جالساً بعد أن صلى ركعتين بطيئتين ، تتسرب دموعهُ إلى جِيده منزلقة عبر المسافة التي بين جسدهِ وقميصهِ إلى أماكن شتى ، هو يعلم أن الغرقى لا يعودون ، يؤمن تماماً بأن ليلى لن تُفلت من قبضة الملكوت وتأتي إليه ، لكن كان عليها أن تودعهُ وداعاً رسميّ أو هكذا تمنى

مرارة الرحيل تستحوذ على حاسة تذوقه ، يستشعر بين الفنية والأخرى وجودها الأقرب للشبح ، لعنة الترعة تتواصل في مخيلتهِ فيرى كلثوم تتبع خطى ليلى نحو الهلاك ، يتملكهُ الرعب فيبكي ، هي الرغبة في الإستسلام أو هكذا ورث الأمر بصورة ممنهجة ، رفع بصره إلى السماء وأخذ يهذى :

- انا لستُ سوى بهنسٍ ما من الذين لا يلائمهم الفرح ، لستُ سوى أباً لليلى من تلك الليالي اللائي غرقن في تُرع الأرض الواسعة الجائعة لمزيد من انثيات الأشياء ، هن هكذا منذ الأبد يغرقن في كل شيء ، في الحب والتُرع في النواح والنشوة وكأنهن خُلقن للزوال بصورة شرهة أكثر من غيرهِن

بـت محجـوب متجولـة فـي سـوق ام دفسـو ، تـزرع ارصـفته وتجـوب شـوارعهِ وتحتضـن بـين مكـان ومكـان آخـر حافظـة الآيـس كـريم التـي مـا زالـت تحـتفظ بملامـح ليلـى ورائحتهـا الطاغيـة ، التسـكع فـي ازقتـهِ مرهقـة جـداً ومكلفـة ربمـا لأنهـا تسـتغرق وقـت أكثـر فـي تخلـيص البضـاعة لا يتناسـب مـع الوقـت القياسـي لليلـى ، حتـى الزبـائن إفتقـدوا بشاشـتها وعبثهـا الطفـولي أثنـاء مرورهـا البهيّ وهي ترمي ضحكاتها الناضجة هنا وهناك بين احضانهم البائسة

بهـنس مُتكـوم علـى بِـرش مـن السـعف ، يفتـل آخـر حبـل مبتـل بالـدمع وينسـجه بتكلـف بـائن ، كمـا لـو أنـه يفتـل ذلـك الحبـل الـذي يتأبطـهُ لمشـنقةٍ مـا ، يـداه ترتعشـان أثنـاء تلـك الممارسـة الأبديـة حيـث تغازلـهُ ليلـى مـن بـين رُزمـات السـعف وتلـوح لـه ، يعلـو وجههـا الـدائري إبتسـامة لطيفـة دافئـة تتلاشـى فـي الفـراغ ولا تصـلْ ، الأمـر أشـبه بـأن تمسـك بسـراب مُنقشـع يـرقص مـاء عـذباً يـدفعك لمطارتـهِ وكلمـا إقتربـت تشـعر مليـاً بتبـدده ، بهـنس يمـارس الأمـر علـى مـرأى مـن زوجتـهِ الشـاحب وجههـا و بنتـه كلثـوم وهـي تـنفخ هـواء عزلتهـا علـى بـالونٍ جديـد سيصـدر دوي بعـد هنيهـة إذا مـا توسـط التُرعـة ، شـجرة الـدوم المنتصـبة المتفرعـة تسـتفذ بهـنس بشـموخها أو هكـذا فسّـر الأمـر إذ هيـأت نفسـها لتكـون معينـاً جـاهزاً لـهُ ، لموتـه الـذي قـرره فـي ضـجة الصـمت التي تملكتهُ وإبتلع فكرته ربما ليفاجئ ليلى في قيامتها

أنهـى نسـج حبلـهِ ببراعـة متناهيـة ، شـدّه ليمـتحن قوتـه وليتأكـد هـلا فعـلاً سـيجعل الأمـر سلسـاً علـى رحلتـهِ السـماوية المفاجئـة ، طـوى الحبـل علـى عنـق شـجرة الـدوم الصـلبة ثـم علـى عنقـهِ الطريـة وقفـز مـن فـوق حلمـهِ الكبيـر متـدلياً ، يـرفس رغبـة فـي التحـرر مـن روحـهِ أو مـن المشـنقة أو مـن كلاهمـا ، يـرفس بسـرعة وقـوه ، كلثـوم ووالـدتها تحتـه تحـاولان إنقـاذهُ وتسـتنجدان ، ليلـى تمـرّ فـي تلـك اللحظـة مُتخللـة سـكراته وتسـحبه إليهـا عاليـاً نحـو أمـاكن لـم نمشـيها بعـد هـي ليسـت أول روح تتبـدد فـي الأفـق أمـام مـرآي أم ليلـى ، ليسـت أول دمعـة تزرفهـا علـى العائـدين حيـث الـرب ، فـالحرب الطاحنـة ومشـهد إحتـراق قريتهـا النائيـة فـي أقصـى جبـل دِلّـو مـا زالـت حبيسـة الـذاكرة ، لحظـة

الفقد هذه أعادت في مخيلتها حروب قديمة ، هيئة اللصُوصْ وهم يتناوبون مع الزُناه ، يبحثون في جِيوبْ الجُثث عن احلامِ الموتى ، قضاياهُم ، عناقهم الأخير وحتى الأطفال من اصلابِ ابائهِمْ المتكئين على الأبدية ، يتذوقون دماءٍ لزجة أثناء مرورهِم الخبيث على انقاضِ المدينة

اللصُوصْ في الحربَ

أكثر بطشاً

أكثر غِلظة وألم من الحرب في معناهُ _ الخراب وأقسى من أن يتدلى أحدهم من شجرة ما مشنوقاً ، احتضنت كلثوم بقوه ، هي آخر شيء جميل ، مسحت من على خديها النديّن دمعاً مالحاً واصطنعت ابتسامة صفراء كلفتها إعتصار حزنها الكاسح ، هي الآن دون بهنس الذي أضحى شبحاً معلقاً على شجرة الدوم اليابسة ، ودون ليلى الغائبة في غياهب الترعة ، بت محجوب تسحب أنفاسها بصعوبة وألم بالغين ، تُمسك بحنان وشفقة كف ام ليلى ، هي رسالة أكثر من ما هي مؤازرة رسالة تعني أنني بقربكِ أكثر من أي وقتٍ مضى ، إفتكت تلك اليد المرتجفة قاصدةً بيتها المُنزوي في الحِلة الفوق وهي تجتر مأساتها وحزنها الشفيفين على مُصاب ام ليلى

قالت لزوجها النّو بعد أن ناولته شاي المغربية :

- ما شفت الحصل يا النّو لبهنس ، عيالو حالتم تحنن الكافر

النّو بعد أن ارتشف من كوبهِ رشفتين سريعتين :

- يا بت محجوب ربنا يرحمهُ لكن كونو ينتحر ما حل
- قدر الله وما شاء فعل
- الشقى ود رجال وبدور ليهو رجال زيو ، والحشاش يملى شبكتو

قالها وعاد ليستمتع بكوب الشاي القابع في يمناه ، هو هكذا مفتياً لبقاً يحشر رأيهُ بصراحة وتلقائية ، يُمرره بجِدة كما لو أنه سيف ويسعل بصمت ناسجاً لفافة من كيس التباكو المركون في دولاب الحديد الصدئ كعادته المسائية الرتيبة وبقربه زوجتهِ تعبأ عصير العرديب والقنقلز في أكياس الآيس كريم ، تعبئه وتحصيهِ بدِقة لتذهب به إلى ثلاجة السوق حيث دكان ود النعيم .

كلثوم وحدها تلعب أسفل شجرة الدوم ، تصنع مزهرياتها الصغيره لورودها وورود ليلى ، ورود لم تأتي بعد من مشتل حي النسيم ، تلعب وتغني :

الليمونة الليلة يا

طير يا حمام لفوق ودي السلام لزول

الليمونة الليلة يا

هي رغبة الطفل في العبث واستمراريتهِ في تدوير الأشياء وتغييرها وفق هواه ، لم تفقد صوت ليلى أثناء دندنتها وهذيانها لم تلحظ فراغ المكان الذي كان يشغِلهُ بهنس لمراقبتهما ، ما لاحظته أن ثمة عصفوراً يجلس على الشجرة ، يُلحن ويضيف ايقاعٍ متقطع لتلك الأغنية التي ارتبطت وجدانياً بالمكان ، العصفور ليس سوى طائر السنونو يجرب صوت ليلى في الغناء

ويحشو وجودها المجازي في تلك المزهريات الطينية الجميلة نوعاً ما ، شعرت بدفء وإنجذاب نحوه ، تملكها احساس انها تفهم لغتهِ ذات البعد الواحد تفهم إنحيازه لمآنستها مبدداً وحدتها القاتلة

أم ليلى تزرع بيوت الحي والأحياء المجاورة باحثة عن عمل يكفيها شر التسول ، تلدغها أشعة الشمس الحارقة فتمشي بمحازاة الطريق ، تمشي فقط دون أن تعي إلى أين وفي نفسها شيء يخبرها بالمُضي قدماً نحو ما تبحث عنه ، تمشي دون خطة أو جهة محددة وفي معترك تساؤلاتها وتوهانها تذكرت بت محجوب صاحبة الآيسكريم ، تذكرت ان هناك حافظة

يمكـن أن تجـوب بهـا سـوق ام دفسـو أو سـوق المواشـي ، ولا شـعورياً أخـذت تمضـي نحـو منـزل بـت محجـوب فـي الحِلـة الفـوق ، فعنـدما تـدفعك الرغبـة يصـبح الأمـر ممكنـاً ومتاحـاً عليـك فقـط أن تـدع العنـان لتتعـرف علـى نفسـك فعليـاً وبصـورة عمليـة ، عليـك أن تتحـول إلـى سـوس يأكـل كـل شـيء أو يحـاول ذلـك ، رحبـت بهـا ، قـدمتها كصـديقة لزوجهـا النّـو وتسـامرا علـى فنـاجين القهـوة ، بِكـري ثـم تِنـى وحتـى السـبارس ، عمقـا علاقتهمـا واسـترجعا اوقاتهمـا الرائعـة البسـيطة ، رفعـت بـت محجـوب فنجـان ام ليلـى المقلـوب مُحاولـةً قراءتهُ ثم أضافت :

- كُنت ماشة ليكي المساء لكن بركة الجيتي

هي بعد أن عدّلت جلستها الخجولة :

- أن شاء الله عافية
- عافيـة ، عـايزاك تسـمحي لكلتـوم تبيـع لـي الآيـس كـريم فـي سـوق أَم دفسو

ألقت ببصرها على الأرض ، شهقت بعنف وألم مُردفة :

- انا بمشي السوق ، كلتوم دي تمشي المدرسة بعد ده

اومـأت برأسـها ايمـاءة رضـى ، لمحـت فنجـان ام ليلـى الـذي بيمناهـا فـي محاولـة فاشـلة لقـراءة المسـتقبل ، هـي لا تعـرف كيـف لكنهـا تُحـاكي تلـك الممارسـة عسـى أن تُفلـح ، هـي مجـرد أكاذيـب تحيكهـا النسـاء ، كضـاربة الرمـل والوداعية وقارئة الفنجان ، والرجال الدجالين والأنبياء المزيفين

كلثـوم تحملـق فـي طـائر السـنونو وتبتسـم ، تُبسـط كفهـا الصـغير ليُحيلـه العصـفور عشـاً دافـئاً ، تمسـح بحنـو جناحيـهِ وتقبلـهُ بحـب ، وحـدها أسـفل الشـجرة تمـارس الحـب مـع الطـائر الـذي إختـزل نفسـه فـي هيئـةِ ليلـى بصـوتها الرقيق وابتسامتها العارية من أيّ ملامح معملية مصنوعة

في الصباح ايقظتها والدتها من النوم أو بالأحرى حررتها من كوابيسها التي تدفعها إلى الصراخ ، ايقظتها لترتب جدائلها وتعيد لخصلها لمعانهِ المبهر ، ام ليلى تتلصص على حركة كلثوم الزائدة وهي تخيط ازار القميص المدرسي ، تخيط غداً جميل وعدت به نفسها ذات صلاة ، ذهبت كلثوم نحو مدرسة حي الجيل وغابت هناك حيث صراعها الذي يخصها وحدها ، بت محجوب منتصبة في شارع الحي الفوق الرئيسي مترقبة المارة ومنتظرة ام ليلى لتحمل حافظة الآيس كريم إلى سوق ام دفسو ، لم تمضي سوى دقائق حتى لمحتها داخل ثوبها الرمادي المزركش ، تمشي بحياء وتخطو بدقة كأنها تحصى تلك الخطاوي التي مشتها ، رحبا ببعضهما وتبادلا ابتسامات الإلفة وإفتراقا كلاً إلى مسعاه

أحياناً نحتاج إلى صدمة ما تعيد ترتيب الأشياء بداخلنا وتُحيلنا إلى أطفال صغار يتعرفون بصورة أكثر عُمق على ماهية الأشياء ويجددون لائحة أولوياتهم وفق إستقراءات جديدة ، الأمر اشبة بأن تمسك بريشة رغبة في الرسم وتكتشف انك تكتب رسالة ، رسالة حميمية لشخصٍ مجهول ليس مُدرجاً في أوراق إنتظارك

طائر السنونو لا يغني

هو فقط يجرب حنجرة ليلى ليبدو جميلاً

كلثوم تبتلع وحدتها حينما تأتي إلى البيت لتقاسم الطائر غنائِها تأتي مُندفعة لتقف أسفل شجرة الدوم تماماً حيث تدلى والدها في الأمس القريب وتعانق رفيقها العزيز إلى قلبها صارخةً :

- انا جيت الأولى يا ليلى

لم تكن تخطط لمناداتهِ بهذا الإسم ، هو فقط إرتباط لا واعي به وبذاكرتها المتأرجحة بين شبيهين سكنا قلبها

فـي زاويـة البيـت ، وبـين الراكـوبتين تحديـداً تصـفق ام ليلـى مـن أجـل ابنتهـا كلثـوم الأولـى فـي صـفها وتصـنع لهـا مرجُيحـة كمـا وعـدتها مـن كومـة الحبـال القابعة أسفل الشجرة

25

سيمياءِ اللون

الصَوتْ الخارج مِنْ اللوحة ليس سِوَى صُراخٍ تجاهلتهُ الرِيشة ، فإرتَسمْ في الفراغ ، والصَمتْ إنحياز أحياناً للسكُون والتبدُد ، لملامح اللوحة وتماهِيها مع الرؤيا المُرتبكة وربما إعوِجاج ذلك الصوت ، تقطُعاتهِ وإنسجامهِ مع ظِلْ النافذة عزّز إعتقاد الناظِر "المُشاهد" بداخلي ، أنْ المشهد كان حزيناً وصريحاً أكثر قبل تجلّيه على هذا الجدار ، تمنيتُ لو كُنت رساماً ، لكن المرءُ لا يُبلى بمصيبتين. ،تمنيتُ لو كُنت لوناً مجازي منحازاً لكل الألوان ،ممسوساً كما الوميض ، لوناً نيئ ، ينبعث من العشب اليابس ، ينبعث من صوت الهشيم ، من عبث الحرب ومن كف طفلة خرجت فارغة للتو من جَيبَ والدها المثقوب ، ومن الثُقب ايضاً. ، بعد حصة الرسم من كل اسبوع ، تأتيّ "فاطمة" إبنةِ الجيران مُخضبةً بالألوان ، وكأن أحدهم عمد على "غمسِها" داخل كل أواني الرسم ، ولأنها عمياء كانت تصطحِبُ "الحِيطْ"

ترسم في لا وعيها وهي تتعرّف على ملامح "الحِيطْ" ، عيّنان ، قِط صغير ، نبتةِ قمح ، خرير المياه ، وتمضى ، تمضى دون أن تتحسس للمرة الأخيرة تلك الرسومات المتناثرة في ارجاءِ الحيّ وباطن الجدار الأملس ، إلى أن تصلْ بيتها المظلم بيتها الذي تحفظ ما بداخله بطريقة ما ، لأن العتمة هي العتمة حيث يتداخل تباين الظلام مع رائحة الأمكنة لتبدو مألوفة ، حينها تمضغ "فاطمة" تساؤلاتها ، وتستلطف الجلوس قرب الباب مُنصتة إلى أصوات المارة ، نقيع ارجلهم وقهقهاتهم ، صراخهم الحاد وهمسهم الدقيق ، دعائهم وسِبابهم ، تستمتع بإمتزاج تلك الأصوات الهاربة من اجسادٍ مُتخمة بالحزن والفرح ، تعبّئ في جوفها أحاسيس العائدين إلى بيوتهم ثم تعود إلى وحدتها ، في تلك الزاوية ، في تلك الغرفة المتآكلة

بالضبط ، حيث تتلوى على نفسها وعلى ذاك الظلام الدامس ، تقترح هناك لوناً ، شمساً ، طعماً للرؤيا ، تستنتج من حفيف الشجر طرق التمايُل والرقص ومن البرد القارص خواص الندى ، هي هكذا دائماً ، تعيش خارج عينيها عسى أن تُفلح في نسج عالمٍ يتجاوز خاصية النظر ، لتتذوق عبرهُ طعم المدى الذي يضيف معنى آخر غير معناهُ الملمُوس

تذكرت تلك الدمية ، دمية عمها "العجب" الذي قدمها هديةٍ لها حينما زارت جدتها "سعاد" ، تذكرت ايضاً "حسين" إبن عمها وهو يحكي لها عن لوحات المرسم خاصتهِ ، يُمسك بيدها ويقحمهُ في اللوحة لتستشعر إبداعهِ أو ربما لمتعة تعرفها هي ، أمسكت الدمية بقوة ، مررت أناملها المرتجفة على ملامح الدمية القطنية ، وببطء إحتضنتها ، أو بصورة دقيقة إحتضنت عمها وإبن عمها وجدتها دفعة واحدة عبر تلك الدمية ، ثم هوت إلى فراشها تاركةً للنوم مُتسعاً يتسلل عبرهُ وللدمع أيضاً ، ففي النوم مآرب شتى من بينها لقاءً قد يتدحرج من أعالي الذاكرة ، أو حلماً يكبر ببطء على مهل الذبول ، بات الأمر بمثابة حرب ، إما أن ترى أو ترى ، بغض الطرف عن ماهية الرغبة التي تعتريها ، فيقول الناظر الذي يمشي أو الجزء الحر منها ، ما الذي تُريّدين رؤيتهُ تحديداً ، فالعالم حولكِ ليس سوى صوت ، صوت ضخم يملأ الفراغ بالتفاصيل ، يعبركِ كما يعبر الجميع ويهمس في أذنيّكِ كما يفعل بكل سكان البسيطة ، لا شيء يدفع للرؤيا ، تمردت "فاطمة" على عصى الخيزران ، على جدران المنازل ورسوماتها التلقائية ، على أشجار النيّم والحراز والفايكس ، تمردت على ذاكرتها المحدودة وأحدثت ثُقباً جديداً بمحازاتهِ ، على نهم الأطفال الذين يُقبِلون للمساعدة ، وعلى المارة وهم يُشيرون على طريقٍ سلس مهذب ، حتى على صديقتها" خديجة" التي تمشي بجوارها حد الإلتصاق دون أن تُمسك بها ولا تكف عن الحديث حتى لا تفقد فاطمة الطريق ، سألتها ذات مرة وهن يثرثرن:

- لماذا تساعدينني يا "خديجة" ، هل أنت مُشفقةً عليّ

- خديجة بإرتباك ، لا ، انا اصطحبُكِ فقط ، ثم إننا في نفس الطريق ، نحن إخوه وبنات حيّ واحد فما الجديد في ذلك
- فاطمة بعد تنهيدة ، لا شيء ، فقط أردتُ أن أطمئن

نبذتَ كل شيء ، كل ما يمكن أن تتمسك بهِ لتنجو ، عازمةً على تكوين حاسةِ سمع تُغنيها عن الإحتياج لأحد ، لتسمع دبيبِ النمل وتستشعر حيز وجوده ، لتسمع صوت الريح وعبثه بورق الشجر والأتربة ، لتتحسس في لُجةِ الظُلمةْ دفتر الرسم في أقصى حقيبتها المدرسية وعُلبةِ الألوان في درج المنضدة ، ونوع المخمل المنزلي في دولاب الملابس ، هي محاولة حثيثة للتعرف على الأشياء عبر الحواس الأربعة مجتمعة لتوليد الرؤيا من الفائض العام لتلك الحواس ، الفكرة برُمتها فكرة مجنونة أو هكذا خِيل ل "خديجة" . في المساء ، وككل يوم جمعة وثلاثاء جاءت الجدة "سعاد" مُحمّلةً ببعض العطور وزيوت الشعر وخاتم لُجيّنْ هرميّ ، أقبلت لتُجدد ترتيب خُصَل حفيدتها وتعيرها بعض العطور الجميلة ، والخاتم الذي ما فتئت تطالب به ، ولجت إليها ، تعانقا وتبادلا إبتساماتهِن المعهودة ثم حضّرا أواعي الإستحمام ، هن هكذا منذ خمسة عشر عاماً يمارسِنْ طقوس الأمومة والطفولة ، "غمستها" داخل الماء الدافئ والمُعد مسبقاً ، بدأت بسرد بعض القِصص التي إرتبطت وجدانياً بهذه الطقوس ، أصدرت فاطمة ضحكة خفيفة ثم أردفت:

- دعيّ الأمر ليّ ، سأستحَمْ لوحدي هذه المرة

الجدة ، :

- لقد كبُرتِ يا فاطمة ، هيا دعينيّ أُراقِبكِ

أخذت تُمرر يدها على جسدها الطريّ المُبلل ، تارةً عبر صابون الإستحمام وتارةً أخرى عبر الماء الدافيء ، تستمتع جدتها بالنظر ربما لمقدرة حفيدتها على الإستحمام وتستمتع فاطمة بتلبية رغبتها في إقتناء جسدها وحدها ،

يضحكان ، تستمر الجدة في سرد الحكاوي والأساطير ، تواصل فاطمة إكتشاف جسدها المُبلل برِقة ، من أعلى رأسها وحتى أرجُلها ، تتأنى في فركَ نهديها الصغيرين مروراً بمنتهى الأشياء ، تتحسسهُ برِفق وتغمره بالماء في حلقة دائرية ليبدو أكثر إرتزاق ، تحاول جاهدةً فرك ظهرها وتأمر الجدة بأن تواصل القصْ ولا دخل لها بصِراع زراعيها في عملية الوصول إلى منطقة الظهر البعيدة ، تضحك الجدة وتُشجِعها وتسكُب من الأعلى ماءٍ نقي يتسربل على جسدها العاري ، جففت شعرِها ، وتمدّدت أمام الجدة ، التي بدأت في نسج شعرها المُبلل كما لو أنها تُحِيك حلماً جديداً تدسهُ في رأس حفديتها الصغيرة ، في مخيلتها التي تتربص بها ويدخلان في مشادّات ، بين الرغبة في إجتياح الضوء والعتمة الجاثمة على صدرها ، عتمة مقدر لها أن تكون ، بهذه الصراحة والصرامة. ، طريق المدرسة المتعرج كان أكبر إمتحان عليها تجاوزهُ ، دون صديقتها "خديجة" ودون أن تتحسس الجدران والرسومات وأصوات المارة ، عليها أن تتبع حدسها ، عليها أن لا تُفرّض في توازنها الحِسيّ ، حشرت نفسها بثقة داخل الشارع المستذئب ومضت ، مضت غير آبهة بشيء وهي تُمسِك الفراغ بيديها الملوحتين ، مُزودةً بفائض الحواس الأربعة ، يحدثها العابرين عن مسارات المشاه وممشى الراجِلينْ ، لا تُبالي بصياحهم ولا بأبواق السيارات التي أفزعتها أكثر مرة ، لم تستطع تحسُس المنعطفات التي يجب أن تخوضها ، ففي الفراغ يبدو الأمر متداخلاً ومتشابه كالظلام الذي يحاصر حُلمها ، أخذت تبكي لأن الرغبة في تجاوز الرؤيا التقليدية للاشياء باتت مُرعبة ، جلست على أسفلت الطريق ، تلطُم وجهها وتلعن ما لم تقوى على تجاوزهُ ، الأبواق تُولوِلْ ، سِباب السائقين يجرح خاطرها الهشْ ، الجارات يُثرثرنْ ويصرُخن ، الأطفال يصيحون "فطومة ركبت الزلط" ، جرى "عبد الوهاب" صاحب البقالة نحوها ، تعثر بالمِقود أو بدقة أكثر تعثر بالقِدر الذي يتأبط المِقود ، سقط مراراً وهو يعدو كالبالون ، سحبها نحو صدرهِ بعفوية ورِقة ، مسح على رأسها في الوقت الذي بلّلتْ دموع فطومة جلابيتهِ

المعروفة ، فطومة تواصل النحيب محاولة دس هزيمتها بين لحظات الشهيق الطويلة ، هي فقط تعرف حجم خسارتها الفادحة ، إنتزعت جسدها بعنف من صدرِ "عبد الوهاب" ، حاول إلتِقافُها ولكن عبثاً أمسك الفراغ ، وإحتضنت صدراً حديديّ عرّفهُ الحاضرين عربة "جامبو" مصبوغة بألوان شتّى ، كلوحة إبتلعت رسامها أو ربما قرر أن يسكنها ، وحدها إستطاعت أن تخبئ رغبتها الجامحة في الرؤيا عبر فائض حواسها ، وحدها تمطّأتْ على شارع الأسفلت الطويل لتُجرب ظلاماً أكبر ، ظلام الموت ورائحة الردى الموسمة بالرعب ، لم ترغب "فاطمة" بالموت بقدر رغبتها في التنحي لمن هم أكثر حيطة وحذر ، أكثر إحتمالاً في الفوز ، جدتها "سعاد" تلطُمْ بكفيها المرتجفتان ، تلطُمْ وجهها وتلعن تلك الأصوات التي حرّضتْ حفديتها على الفناء ، بصقتْ كل ما إختزنتهُ من ألمْ وحزن وهي تتحسّس وجودها المُفترض على محيا القابعين ، لم تتسامح مع فكرة أن "فاطمة" حشرت نفسها دفعة واحدة في أوجِ العدم ، وهناك في زاويةِ البيت وعلى مدخل الغرفة الصغيرة ، تكوّر إبن عمها "حسين" يراقِب اللوحات الشاحبة والرسومات التي تُحاكي الجلوس المُهمل ، ربما ستخرج صاحبة الريشة من بين حوافها حينما ينجلي النهار ، الأمر أشبه بأن تُصدِق أو لا تُصدِق إحتمالات باهتة مُملة ، لمْ تُفسِر "خديجة" كل تلك التساؤلات التي دائماً ما تُقحِمها "فاطمة" في تسكُعِهنْ وثرثرتهِنْ ، بل لم تتقبل رحيلها المُناقض لرغبتها في تجاوز عينيها البيضاوين لتنسج خاصية رؤيا تخصها ، هي لحظة تعمّدتْ أن تستبعد فكرة الهزيمة التي إعترتْ صديقتها المُحبة وتستنكِرها ، أطفأتْ أنوار غرفتها الصغيرة ليسمح لها الظلام بالبكاء دون أن تُهيء في ذاكرتها مكاناً للحظةِ الحزن تلك ، الظلام الذي سمح "لفاطمة" بالركض الأعمى يمكنهُ أن يتحمل فائض الدموع ، يمكنهُ إبتلاع أسفي كما إبتلع توسُلاتها ، يمكنهُ إزاحةِ صوتي المُتحشرج كما أزاح تلك الأصوات الضخمة من ذاكرتها ، لأن كل شيء في الظلام ممكناً كاس 2018

الفهرس

م	الموضوع	الصفحة
1	الاهداء	5
2	للحزن ممشى	6
3	ما يحدث في الزقاق	15
4	ذاكرة الشتاء	20
5	ظلال تطارد اجسادها	25
6	أنثى مزيفة	30
7	مشاهد محذوفة	36
8	صدى الفاجعة	44
9	أنا لست بقرة	49
10	نشوة الهلاك	57
11	يوم في كوبا	62
12	ازرار البيانو	67
13	توهان	73
14	عزاء على ورق	79
15	محطة تيبورتينا	83
16	اتكاءة على الجرح	91
17	امرأة من بحيرة تانجانيقا	99
18	لصوص أفانوفا	105
19	بكاء العصافير	112
20	موسم الجوافة	117
21	ليس بيننا ما يستدعي البكاء	123
22	مساحيق لا تخص النساء	127
23	سوسن الاخرى	133
24	فلسفة المشاط	140
25	موسيقى الغياب	148
26	سيمياء اللون	159